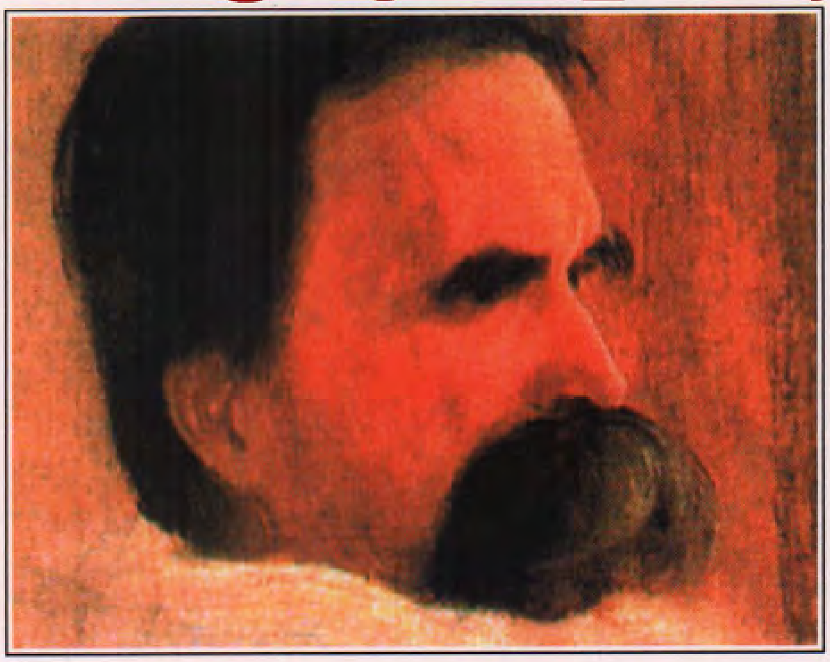
فريدريش نيتشه

هذا هو الإنسان



ترجمة: علي مصباح

منشورات الجمل

فريدريش نيتشه

هذا هو الإنسان

ترجمة: علي مصباح

منشورات الجمل

ولد فريدريش نيتشه (١٨٤٤-١٩٠٠) في لوتسن وتوفي بمدينة فايمار بالمانيا. فيلسوف الماني. من أعماله: **هكذا تكلّم زرادشت** (١٨٨٣-١٨٨٥)، **ماوراء الخير والشر** (١٨٨٦)، **المعرفة المرحة** (١٨٨٢)، **قضية فاغنر** (١٨٨٨).

ولد علي مصباح عام ١٩٥٣ بتونس. روائي ومترجم تونسي يقيم ببرلين. صدر له عن منشورات الجمل: **بيتر سلوتردايك: «الإنجيل» الخامس لنيتشه** (ترجمة) ٢٠٠٣.

فريدريش نيتشه: **هذا هو الإنسان**، ترجمة: علي مصباح

الطبعة الثانية ٢٠٠٦

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٢٣٠٤

ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Friedrich Nietzsche: *Ecce homo,* 1888

الطبعة العربية

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: info@al-kamel.de

ECCE HOMO(*)

هذا هو الإنسان

(*) أنظر إنجيل يوحنّا؛ الإصحاح 19 : «فخرج بيلاطس أيضًا خارجًا وقال لهم ها أنا أُخرجه إليكم لتعلموا أنّي لست أجد فيه علّة واحدة. فخرج يسوع خارجًا وهو حامل إكليل الشوك وثوب الأرجوان. فقال لهم بيلاطس هو ذا الإنسان.» / أنظر أيضًا لوحة هورينوموس بوش الشهيرة التي تحمل نفس الإسم وحيث يظهر المسيح متقدّما نحو الصليب.

مقدّمة

1

تحسّبا لكوني سأضع البشريّة عمّا قريب أمام إلزامات جسيمة لم تعرف لها مثيلا في السابق، فإنّه يبدو لي من الضروري أن أقول لكم من أنا. مع أنّه من المفترض، في الواقع، أن يكون الناس على علم بذلك لأنّني لم أدع نفسي «أظلّ نكرة». غير أنّ عدم التناسب بين جسامة مهمّتي وحقارة معاصريّ قد تجسّد في أنّني بقيت لا أُسمع، بل ولا أُرى حتّى. إنّني أحيا على الرصيد الخاصّ الذي كوّنته لنفسي، بل لعلّ الإعتقاد بأنّني أحيا ليس سوى مجرّد فكرة مسبّقة لا غير... وإنّه ليكفي أن أتحدّث لأحد من هؤلاء «المتعلّمين» الذين يأتون لقضاء الصيف في أنغادين العليا لكي أدرك أنّني لست حيًّا...

في مثل هذه الأحوال يغدو من الواجب عليّ القيام بعمل هو في الواقع ممّا يستثير عاداتي السلوكيّة وأكثر من ذلك كبريائي، وهو أن أقول: **اسمعوني! فأنا فلان الفلاني. لاتخلطوا بيني وبين شخص آخر!**

2

أنا، مثلاً، لست فزّاعة على الإطلاق، ولا أنا غول أخلاقيّ - بل إنّني من طبيعة نقيضة لذلك الصنف من البشر الذين ظلّ الناس إلى حدّ الآن يُقدّسونهم كأمثلة للفضيلة. بل لأقولها بيني وبينكم إنّ ذلك بالذات هو ما يبدو لي أحد عناصر اعتزازي بنفسي؛ فأنا تلميذ لديونيزوس، وإنّي لأفضّل أن أكون مهرّجًا على أن أكون قدّيسًا. فليقرأ الناس إذًا هذا النصّ! فلعلّي قد وفّقت في مهمّتي؛ إذ ربّما لم تكن له من غاية سوى التعبير بصفة بهيجة وودودة عن هذا التناقض.

إنّ آخر ما يمكن أن يخطر لي أن أعد به هو «إصلاح» البشريّة. كما أنّني لن أشيّد أصناما جديدة؛ وليعلم القدامى ما الذي يجلبه الانتصاب على قدمين من صلصال. **تحطيم الأصنام** (وهذه كلمتي المفضّلة للتعبير عن «المُثُل») هي حرفتي، ذلك أنّه بمجرّد أن ابتُدعت أكذوبة عالم المُثل قد تمّ تجريد الواقع من قيمته ومن معناه ومن حقيقيّته. . . «العالم الحقيقي» و«العالم الظاهريّ» - أو بعبارة أكثر وضوحا: العالم المبتدَع والعالم الواقعيّ. . . إنّ أكذوبة المُثل ظلّت إلى حدّ الآن اللعنة الحائمة فوق الواقع، وعبرها غدت الإنسانيّة نفسها مشوّهة ومزيّفة حتّى في غرائزها الأكثر عمقًا -تزييف بلغ حدّ تقديس القيم المعكوسة المناقضة لتلك التي كان بإمكانها أن تضمن النموّ والمستقبل، والحقّ المقدّس في مستقبل.

3

من يعرف كيف يتنفّس من الهواء الذي يملأ كتاباتي يدرك أنه هواء أعالي؛ هواء شديد حادّ، وعلى المرء أن يكون مجبولا لمثل

هذا الجو وإلاّ فإنّ الخطر سيكون غير يسير؛ خطر الإصابة ببردٍ. الجليد قريب، والوحدة رهيبة - لكن لكم تبدو هادئة كلّ الأشياء وهي تستلقي في النور! وبأيّة حريّة يتنفّس المرء! وكم من الأشياء يشعر بها المرء **تحته**!- إنّ الفلسفة كما كنت دومًا أفهمها وأعيشها، هي الحياة طوعًا في الجليد وفوق الجبال الشاهقة؛ البحث عن كلّ ما هو غريب وإشكاليّ في الوجود Dasein، وعن كلّ ما ظلّ إلى حدّ الآن منبوذًا من قبل الأخلاق. وإنّ تجربة طويلة اكتسبتها من هذا التهوام في ربوع الممنوع هي التي علّمتني أن أنظر إلى الأسباب الكامنة خلف عمليّات سنّ الأخلاق والمثل نظرة أخرى مغايرة لتلك التي يمكن أن تكون مرغوبة ومستساغة: هكذا انكشف لي التاريخ الخفيّ للفلاسفة ونفسيّة أعلامهم من ذوي الأسماء الكبيرة.

أيّ قدر من الحقيقة يستطيع عقل أن **يتحمّل**؟ وإلى أيّ حدّ من الحقيقة **يجرؤ** عقل على المضيّ؟ تلك هي المقاييس الحقيقيّة التي غدوت أعتمدها أكثر فأكثر للتقييم. فالخطأ (الاعتقاد في المُثل) ليس عماءً؛ الخطأ جبن... وكل فتح جديد، وكلّ خطوة إلى الأمام في مجال المعرفة إنّما هي متأتية من الشجاعة، ومن الشدّة مع النفس، ومن النقاوة تجاه الذّات...

أنا لا أفنّد المُثل بل أكتفي بوضع القفّاز عند تناولها... *Nitimur in vetitum*

(أتطلّع إلى كلّ ممنوع)؛ تحت هذه العلامة سيُكتب النصر لفلسفتي ذات يوم، ذلك أنّ الحقيقة وحدها هي التي ظلّت إلى حدّ اليوم خاضعة جوهريًّا للحظر.

من بين كلّ أعمالي يحتلّ زرادشت(ي) موقعًا خاصًّا؛ عبره تقدّمت إلى البشريّة بأكبر هديّة لم يسبق لها أن نالت مثلها إلى حدّ الآن. هذا الكتاب، بنبرته التي تعبر آلاف السنين، ليس أعظم كتاب على الإطلاق فحسب: كتاب أعالي بحقّ - يبدو الواقع الإنساني بكلّيته رابضًا على مسافة خياليّة من تحته -، إنّه أيضا الكتاب الأكثر عمقا؛ كتاب طالع من الأعماق السريّة لكنوز الحقيقة؛ بئر لا تنضب حيث لا تنزل دلو دون أن تصعد ممتلئة ذهبًا وخيرًا كثيرًا.

ليس «نبيًّا» هذا الذي يتكلّم الآن؛ واحدًا من تلك الكائنات المسخ الملفّقة من خليط الأمراض وإرادة السلطة الذين يدعوهم الناس بمؤسّسي الدّيانات. على المرء قبل كلّ شيء أن يصغي جيّدًا إلى النبرة الطالعة من هذا الفم؛ نبرة السكينة، كي لا يخطئ عن حسن نيّة فهم معنى حكمته. «إنّ الكلمات الأكثر هدوءاً هي التي تستدرج قدوم الإعصار؛ وإنّ كلمات تتقدّم على أرجل حمام لهي التي تقود العالم.»

«ثمار التين تقع من الأشجار؛ إنّها طيّبة وحلوة، وفيما هي تقع تنشقّ قشرتها الحمراء.

ريح الشمال أنا بالنسبة لثمار التين الناضجة.

هكذا، مثل ثمار التين، تنزل إليكم هذه التعاليم أيها الأصدقاء: لترتشفوا إذًا رحيقها الحلو ولحمتها اللذيذة! فالخريف من حولنا وصفاء السماء والعشيّة!»

ليس واحدًا متعصّبا هذا الذي يتكلّم هنا؛ هنا لا «يُكرز» ولا يطالَب بإيمان.

قطرة قطرة، كلمة كلمة، من المدى اللامتناهي للحبور النوراني والبئر العميقة للسعادة ترد كلمات هذه الخطبة؛ بطء رقيق هو نسق هذا الخطاب. وحدهم المنتخبون هم الذين يحظون بمثل هذه الأشياء، وإنّها لحظوة لا مثيل لها أن يكون المرء مستمعًا هنا وعلى أيّة حال ما من خيار لمستمع غير الإصغاء لزرادشت ... أليس زرادشت بسيّد غواية؟

لكن ما الذي يقوله هو نفسه وهو يؤوب للمرّة الأولى إلى وحدته من جديد؟ تمامًا عكس ما يمكن أن يقول أيّ «حكيم» أو «قدّيس» أو «مخلّص» أو أيّ من المنحطّين *décadent* الآخرين في مثل هذا الظرف... إنّه لا يتكلّم بطريقة مختلفة فحسب، بل إنّه مختلف أيضًا...

«وحيدًا أمضي الآن يا مريديّ! وأنتم أيضًا ستمضون الآن، وحيدين! هكذا أردت لكم.

انصرفوا عنّي واحترسوا من زرادشت! بل وأكثر من ذلك: اخجلوا من جرّائه! فلعلّه قد خدعكم.

إنّه لا ينبغي على الإنسان العارف أن يحبّ أعداءه فحسب، بل عليه كذلك أن يكون قادرًا على كره أصدقائه.

وإنّها لمكافأة رديئة للمعلّم أن يظلّ المرء على الدوام مجرّد تلميذ. فلِم لا تريدون تمزيق إكليلي؟

إنّكم تجلّوني؛ لكن ما الذي سيحدث لو أنّ إجلالكم هذا تداعى ذات يوم؟ احترسوا من أن يقتلكم صنم ما!

تقولون إنّكم تؤمنون بزرادشت؟ لكن ما أهميّة زرادشت! وأنّكم تؤمنون بي، ولكن ما أهمية كلّ المؤمنين!

أنتم لم تبحثوا بعد عن أنفسكم: هكذا وجدتموني. كذا يفعل كلّ المؤمنين، ولذلك ليس الإيمان بشيء ذي بال.

والآن أطالبكم بأن تضيعوني وأن تجدوا أنفسكم، وإنّي لن أعود إليكم إلاّ عندما تكونون قد أنكرتموني جميعًا.»

فريدريش نيتشه

في هذا اليوم الذي بلغ الاكتمال حيث الأشياء جميعها في أوج النضج، وليس العنب وحده الذي يتخضّب بالسمرة، وقع على حياتي شعاع شمس: نظرت إلى الخلف، ونظرت إلى الأمام، وإذا أمام عينيّ من الأشياء الكثيرة والجيّدة ما لم أر من قبل هكذا دفعة واحدة. ليس عبثًا إذًا أن أكون قد دفنت اليوم السنة الرابعة والأربعين من عمري، فقد حقّ لي أن أدفنها. ما كان جديرًا بالحياة فيها تمّ إنقاذه، وغدا خالدًا. تقويض كلّ القيم(*)، والديثرامبوس الديونيزيّة (الأناشيد المدائحيّة)(**)، وغروب الآلهة، ومحاولاتي لتعاطي الفلسفة بضربات المطرقة كلّها كانت من هبات هذه السنة، بل الربع الأخير تحديدًا من هذه السنة! كيف لا أكون ممتنًا لحياتي بكلّيتها إذًا؟ لهذا أروي حياتي لنفسي.

(*) «الكتاب الأوّل من قلب كلّ القيم»، هكذا يرد في كلّ النسخ التقليديّة المتداولة حتّى ظهور «الطبعة الدراسيّة النقديّة» (Kritische Studien Ausgabe) المحقّقة والمدقّقة من قبل الإيطاليّين كوللي ومونتناري.

(**) «أناشيد زرادشت»، هكذا يرد في النسخ المتداولة.

لِـم أنا على هذا القـدر من الحكمة

1

إنّ سعادة وجودي وما يحدّد طابعه المتفرّد مرتبطة بقدَر هذا الوجود: إنّني، ولكي أعبّر بطريقة الألغاز، ميّت في هيأة أبي، حيّ في هيأة أمّي، وسأعيش طويلا وأعرف الشيخوخة. هذا الأصل المزدوج المرتبط بأعلى درجة في سلّم الحياة وأسفل درجة فيه: انحطاط *décadent* وبداية في الآن نفسه، ذلك هو ما يفسّر أكثر من أيّ شيء ذلك الحياد وتلك الاستقلاليّة تجاه المشكل الجملي للحياة التي يمكن اعتبارها ميزتي الخاصّة. إنّني أتمتّع أكثر من أيّ كان بحاسّة شمّ مرهفة لالتقاط علامات الطلوع والتقهقر، وأنا المعلّم بامتياز *par excellence* في هذا المجال، ذلك أنّي عرفت كلتا الظاهرتين، وأجسّد كلتا الظاهرتين. مات أبي في سنّ السادسة والثلاثين؛ كان رقيقًا ولطيفًا وعليلا مثل كائن مهيّإ ليكون عابرًا لا أكثر، مجرّد ذكرى لطيفة عن الحياة أكثر منه الحياة نفسها. في مثل تلك السنّ التي شرعت حياته فيها بالانحدار، شرعت حياتي أيضًا

بدورها في التدهور: في السنة السادسة والثلاثين هبطت حيويّتي إلى مستواها الأدنى. كنت أحيا، لكن دون القدرة على النظر على بعد ثلاثة أمتار أمامي. في ذلك الوقت - كان ذلك سنة 1879 - تخلّيت عن خطّتي كأستاذ ببازل، وقضّيت الصائفة في هيأة شبح بسانت موريس، ثم عشت الشتاء الذي لحقها - الشتاء الأقل شمسًا في حياتي- شبحًا في ناونبورغ. كنت في الدرك الأسفل آنذاك؛ وقد جاء كتاب «المسافر وظلّه» من نتاج تلك الفترة، وكنت عندها دون شكّ ذا خبرة بأمر الأشباح . . . خلال الشتاء اللاحق، أوّل شتاء لي بجنوة، تمخّضت تلك الرقّة وشفافية الروح الناجمة على ما أعتقد عن فقر مشطّ في الدّم ووهن العضلات عن مؤلّف «الفجر». إنّ الوضوح التام والبهجة المطلقة، وكذلك التوهّج الفكري التي يعكسها ذلك المؤلّف تتلاءم لديّ لا مع الحالة القصوى للضعف الجسدي فحسب، بل وكذلك مع أقصى درجات الألم. وفي خضمّ محنة العذابات التي سبّبتها لي ثلاثة أيّام من الصّداع الحادّ المُرفق بغثيان متواصل مجهد كنت أتمتّع بوضوح جدليّ خالص *par excellence* وأفكّر ببرودة في أمور ما كنت في حالة العافية لأمتلك لها ما يكفي من البرودة والرهافة والقدرة على تسلّق الأعالي. ولعلّ قرّائي يعرفون إلى أيّ حدّ كنت دوما أعتبر الجدل كعَرَض للانحطاط، على سبيل المثال عند الحالة الأكثر شهرة؛ أعني سقراط. لقد ظلّت كل أنواع الخلل الذهني وكذلك حالات الذهول التي تجرّها الحمّى أمورًا غريبة بالنسبة لي إلى حدّ هذا اليوم، ولم أخبر شيئًا عن طبيعتها ونسق وتيرتها إلاّ عبر بعض المؤلّفات العلميّة التي راجعتها. دمي يسري ببطء. ولم يسبق لأحد أن لاحظ شيئًا من الحمّى لديّ. حتّى

أنّ أحد الأطباء الذي كان يتعهّدني كمريض عصبيّ قد انتهى بأن قال لي: «لا، ليست أعصابك هي المريضة، بل أنا هو المتوتّر». هنالك بكلّ بساطة تفكّك في موقع ما لم يُتوصّل إلى إثباته بعد؛ ما من إصابة عضويّة في المعدة كنتيجة للإنهاك الجسديّ والضعف الأقصى للجهاز الهضميّ. وحتّى آلام العينين التي تجعلني في بعض الأحيان مهددًا بفقد البصر، هي أيضًا ليست سوى نتيجة لا سببًا، إذ كلّما نمتْ طاقاتي الحيويّة وانتعشت من جديد إلاّ وانتعشت قدراتي البصريّة أيضًا. إنّ سلسلة من السنوات، سلسلة سنوات عديدة تعادل لديّ صيرورة الشفاء، لكنّها تعادل أيضًا وللأسف صيرورة التراجع والإنتكاس والتداعي ودوريّة نوع من الانحطاط *décadence*. ألا يحقّ بعد هذا كلّه أن أقول إنّ لي تجربة في مجال كلّ ما يمتّ إلى الانحطاط بصلة؟ فقد تهجّيت المسألة في كلّ الاتّجاهات؛ إلى الأمام وإلى الوراء.

حتّى تلك الإجادة لفنّ اللمس والفهم عامّة، وذلك الحسّ المرهف للفوارق الدقيقة، وتلك الخبرة النفسيّة بفنّ المداورة، وكلّ الخصال التي تميّزني، هي كلّها ممّا تعلّمته آنذاك، وهي الهبة الحقيقيّة لتلك الفترة الزمنيّة التي غدا فيها كلّ شيء لديّ أكثر رهافة: المعاينة وكذلك أعضاء المعاينة. النظر إلى المفاهيم والقيم الصحيّة من زاوية نظر المريض، ثمّ عكس العمليّة بالإطلال من منطلق الوعي الذاتي للحياة الثريّة على هاوية العمل السريّ لغرائز الانحطاط؛ كانت تلك أطول دربة لي، والتجربة الجوهريّة بالنسبة لي، وإذا ما كانت لدي براعةٌ ما فإنّما في هذا المجال. لقد تملّكت بالأمر، وغدت لديّ اليوم الخبرة التي تمكّنني من **تحويل زوايا الرؤية**؛ إنّه

السبب الأوّل الذي بإمكانه أن يجعلني الوحيد المؤهّل لمهمّة «قلب القيم».

2

بقطع النظر عن كوني متدهورًا، أنا أيضًا نقيض المنحطّ. لقد أثبتّ ذلك بكوني أتوصّل غريزيًّا إلى اختيار العلاج المناسب دومًا في مواجهة حالاتي الصحيّة السيّئة، بينما لا يلجأ المنحطّ دوما إلاّ إلى الوسائل المهلكة. لقد كنت معافى في كلّيتي، لكنّني من وجهة أجزائي وتفاصيلي، وكحالة خاصّة كنت متدهورًا. إنّ تلك الطاقة التي سمحت لي بالانعزال والتخلّص من كلّ شروط الحياة المعتادة، وتلك الصرامة مع النفس التي جعلتني أرفض أن أظلّ مكفولا ومخدومًا ومطبّبًا، كلّ هذا ينبئ عن امتلاكي آنذاك ليقين غريزي مطلق تجاه ما كان ضروريًّا لي. لقد أخذت مصيري بيدي، وعالجت نفسي بنفسي؛ الشرط الأساسي في ذلك - وهذا ما يثبته كلّ عالم فيزيولوجي - أن يكون المرء معافى في جوهره. إنّ كائنا من النوع المريض في الأساس ليس بإمكانه أن يغدو معافى ،وأقلّ من ذلك أن يكون بإمكانه معالجة نفسه، وبالمقابل فإنّ الوقوع في المرض سيكون بالنسبة لمن هو معافى بطبعه حافزًا حيويًّا للإقبال على الحياة؛ الحياة /بكثافة/ . هكذا تتراءى لي الآن تلك الفترة الطويلة من المرض: لقد اكتشفت الحياة من جديد، بما في ذلك نفسي، وغدا بوسعي أن أتذوّق كلّ الأشياء الطيّبة بما في ذلك الأشياء الصغيرة كما لا يستطيع أحد آخر أن يتذوّقها بتلك السهولة. هكذا

جعلت من رغبتي في أن أكون معافى ومن رغبتي في الحياة فلسفتي الخاصّة. . .

لننتبه إذًا إلى هذا الأمر: إنّ السنوات التي بلغتْ حيويّتي فيها المستوى الأدنى كانت هي السنوات التي انقطعت فيها عن كوني متشائمًا. كانت غريزة التجدّد الذاتي هي التي منعتني من تعاطي فلسفة الفاقة والقنوط. . . لكن ما الذي يجعل المرء على العموم قادرا على تمييز تكوينة جيّدة؟ أن يكون أمْرَاً ذا تكوينة جيّدة يعني أن يكون شيئًا تستسيغه حواسّنا؛ مصقولا من خشب صلب وليّن وشذيّ الرائحة في الآن نفسه. شخص لا يستطيب إلاّ ما كان نافعًا له، وحالما تتجاوز الأشياء حدّ المقدار النافع يكفّ عن استساغتها والتلذّذ بها. إنّه يدرك بمحض حدسٍ وسائلَ العلاج ضدّ كلّ ما هو مضرّ، ويحوّل لمصلحته الصدف الكريهة؛ وعلى العموم فكلّ ما لا يتسبّب في هلاكه لا يمكن إلاّ أن يجعله أكثر صلابة. إنّه يجمع غريزيًّا من كلّ ما يرى ويسمع ومن كلّ ما يحدث له رصيد ثروته: مبدأ انتقاء؛ يترك الكثير من الأشياء ولا يحفل بها. وهو على الدّوام بين أهله وأصحابه سواء كان بين كتب أو أناس أو بين أحضان وسط طبيعيّ: يكرّم فيما هو ينتقي ويقبل ويمنح ثقته. إنّه يتصرّف بتأنّ وبطء تجاه كلّ ما هو مثير؛ ذلك البطء المتأتّي من تجربة طويلة في الحذر والكبرياء المقصودة؛ يختبر الإثارة المقبلة عليه، وليس من طبعه البتّة أن يمضي إليها. إنّه لا يؤمن لا بـ«الشؤم» ولا بـ«الذّنب»: يعرف كيف يصفّي حسابه مع نفسه كما مع الآخرين، يعرف كيف ينسى؛ وهو قويّ بما فيه الكفاية كي يسير كلّ شيء حتمًا لصالحه. هكذا، فأنا نقيض المتدهور إذًا!، ذلك أنّني إنّما كنت أصف نفسي بهذا الكلام.

3(*)

أعتبر ذلك حظوة كبرى أن كان لي مثل ذلك الأب: الفلاّحون الذين كان يكرز بينهم - ذلك أنّه قد عمل واعظًا عقب إقامته بضعة سنوات بقصر ألتنبورغ - كانوا يقولون عنه: هكذا يمكن لملاك أن يكون. ههنا أجد نفسي أتعرّض لمسألة الأصل العرقيّ. أنا نبيل

(*) هذه الفقرة لا توجد في كلّ النسخ عدا طبعة كوللي ومنتاري المشار إليها سابقًا. والواضح أنّ أغلب هذه النسخ المتداولة بما في ذلك النسخة المحقّقة من قبل كارل شليشتا والتي وقع اعتمادها من قبل، وكذلك جلّ الترجمات الفرنسيّة أيضًا (ترجمة هنري ألبرت؛ نشر دينوال / غونتييه -1971، اعتمادا على نسخة 1909 المنشورة لدى (Mercure de france)، قد تغاضت عن هذه الفقرة المحذوفة من النصّ الأصلي بعد التعديلات والتغييرات التي أجرتها إليزابيت فورستر نيتشه (الأخت) بالتعامل مع بيتر غاست الذي تسلّم مسؤوليّة الإشراف عن تركة نيتشه بعد وفاته .-المترجم-
نصّ الرسالة التي كتبها بيتر غاست إلى إليزابت فوستر نيتشه مرفقة بالفقرة المحذوفة: «هذه نسخة من ورقة بعث بها نيتشه وهو في حالة من الجنون المكتمل إلى نويمان (الناشر) وكتاب Ecce homo تحت الطبع وذلك في أواخر شهر ديسمبر من تورينو.» ويضيف بيتر غاست موضحًا: «ذهبت إلى نويمان صبيحة يوم الإثنين. نودي بالهاتف على ابن أخيه غوستاف نويمان. وفي بداية اللقاء استلمت بموافقة نويمان هذه الورقة الإضافيّة من Ecce homo. ولا أعتقد أن بحوزة نويمان نسخة من هذه الورقة؛ كانت لا تزال في الصندوق وفي المكان نفسه الذي رأيتها فيه من قبل عندما أطلعني عليها في مرّة سابقة. لنكن ممتنّين لحصولنا على هذه الورقة، لكن لا بدّ أن تُتلف الآن نهائيًّا! وحتّى وإن يبدو جليًّا أنّها كتبت في حالة من الجنون المكتمل، فسيوجد دومًا بعض الذين سيقولون: بل أنّها ولهذا السبب بالذات ذات مدلول وأهمية، ذلك أنّ الغرائز المتحرّرة من كلّ قيود الرهبة والحرج هي التي تتكلّم هنا بكامل الصدق.» عن G.colli und M.Montari, Kommentar zur Band 6. (Ecce homo). Gesammte Werke von Friedrich Nieztsche. Kommentierte Studienausgabe. DTV Verlag.

بولوندي أصيل لا تشوب دمه قطرة واحدة من الدم الفاسد، الألماني على الأقلّ. وعندما أبحث لي عن نقيض جوهريّ؛ خسّة الطبع سفالة الغرائزالتي لا حدود لها أجد أمامي على الدوام أمّي وأختي، وإنّ الإعتقاد بأنّ لي قرابة مع مثل هذا الرهط من السفلة لهو ضرب من التجديف على منزلتي الألوهيّة .إن المعاملة التي ألقاها من قِبل أمّي وأختي إلى حدّ هذه اللحظة تملؤني فظاعةً لا تقدر على وصفها الكلمات: آلة جحيميّة تشتغل هنا، وبوثوق لا يشوبه خطأ بخصوص اللحظة التي يمكن فيها إصابتي إصابة دامية - أعزّ وأرقى لحظاتي،... حيث لا تتوفّر أيّة طاقة على التحصّن من الحشرات السامّة ... إنّ القرب الفزيولوجي يساعد على إيجاد هذا التنافر المحدَّد مسبقًا disharmonia praestabilita. إلاّ أنّني أقرّ بأنّ الاعتراض الجوهريّ على «العود الدائم»، فكرتي الجوهريّة في الواقع، يتمثّل دومًا في الأمّ والأخت. لكنّني أيضًا كبولنديّ، أمثّل حالة وراثيّة atavismus. وسيكون على المرء أن يعود عدّة قرون إلى الوراء كيما يستطيع أن يعثر في أعماق الغرائز الباطنيّة على هذا الجنس الأكثر سموًا ونبلا من بين ما وجد على وجه الأرض، كما أمثّله أنا. لديّ إحساس واثق بالتميّز تجاه كلّ ما يدعى اليوم بالنّبالة، وإنّني لن أمنح القيصر الألماني الجديد(*) حتّى شرف أن يكون حوذيًّا لي. هنالك حالة واحدة أتعرّف فيها على ندّ لي -أقرّ بذلك بشعور عميق بالإعتراف بالجميل. السيّدة كوزيما فاغنر هي الطبيعة

(*) المعنيّ هنا هو فريدرش فيلهلم الثاني (1859-1941)، ابن فريدريش فيلهلم الأوّل. منح القيصريّة سنة 1888 على إثر وفاة والده، وانتهت مدّة حكمة سنة 1918 إثر الحرب العالميّة الأولى، وقبيل إعلان جمهوريّة فايمار. -المترجم-

الأكثر نبلا وسموًّا على الإطلاق، وكي لا أقصّر في الكلام، أقول أيضًا أنّ ريتشارد فاغنر الذي يعتبر أقرب الناس لي. . . والبقيّة أدعها للصمت (Der Rest ist Schweigen). إنّ كلّ المفاهيم السائدة حول درجات ومستويات القرابة ليست سوى ترّهات فزيولوجية ليس هنالك ما يفوقها حماقة. وإنّ البابا الحالي يصرف الشؤون بمقتضى هذه الترهات. إنّ المرءَ أبعد ما يكون عن القرابة مع عائلته؛ بل إنّه سيكون من علامات الفظاعة القصوى أن يكون المرء قريبًا من عائلته. فالطبائع السامية لها أصولها في ماض بعيد لا متناه، وهي حصيلة لجملة من التجميع والتخزين والتراكمات الطويلة جدًّا. الأفراد العظام هم الأكثر قدمًا؛ لا أفهم ذلك، غير أن يوليوس قيصر بإمكانه أن يكون أبي -أو الاسكندر ذلك التجسيد الحيّ لديونيزوس. . . في هذه اللحظة التي أكتب فيها هذه الأشياء يأتيني البريد برأس ديونيزي. . .

(في أغلب النسخ المتداولة توجد عوضًا عن الفقرة السابقة فقرة أخرى لا يثبتها مونتناري وكولّيني في نسختيهما النقديّة، وهي بالطبع من وضع نيتشه، لكنّه قد استعاض عنها بالفقرة السابقة التي أرسلها إلى الناشر في 6 ديسمبر 1889 والكتاب آنذاك تحت الطبع:

3 (ب)(*)

هذه السلسلة المزدوجة من التجارب وهذه القدرة على ولوج عوالم تبدو مختلفة تتكرّر في طبيعتي وعلى جميع الأصعدة؛ إنّني الوجه الثاني لنفسي، وإن كنت أمتلك هذا الوجه إلى جانب الوجه

الأوّل؛ ولعلّي أمتلك أيضًا آخر ثالثا . . . إنّ أصلي لوحده ليجعل بإمكاني أن أنظر في ما وراء الرؤى المحلّية الصرفة والقوميّة الصرفة، وإنّه لا يكلّفني أيّ جهد إذًا أن أكون «أوروبيًا ممتازًا». من ناحية أخرى فمن المحتمل أن أكون، أنا الألماني المعادي للسياسة، ألمانيًا أكثر من ألمانيّي اليوم، هؤلاء الذين ليسوا سوى مجرّد ألمان الإمبراطوريّة (الرايخ). مع ذلك فإنّ أسلافي من البولونيّين النبلاء: من هنا ذلك (الحسّ العرقيّ) الكبير الذي لديّ، من يدري؟ وكذلك هذا *liberum veto* – حقّ الاعتراض الدائم أيضًا. وعندما أتذكر كم مرّة حدث لي أثناء سفراتي أن أخاطَب باللغة البولونيّة، وذلك من قبل حتّى بولونيّين ، وكم كانت نادرة الحالات التي أخذت فيها على أنّني ألماني، يدفعني ذلك إلى الاعتقاد بأنّني لا أنتمي إلاّ إلى أولئك المبقّعين بالجرمانيّة لا غير. غير أنّ أمّي فرانسيسكا أوهْلرْ كانت دون شكّ من ذلك النوع الألمانيّ جدًّا، وكذلك جدّتي من جهة أبي؛ إردموته كراوزه. وقد عاشت هذه الأخيرة سنيّ شبابها بكلّيتها في فايمار القديمة الرائعة ليس دون علاقات مع وسط أنصار غوتة. كما أنّ أخاها كراوزه عالم اللاهوت بكونكسبرغ قد دُعي إلى فايمار كعميد أوّل عام Generalsuperintendant على إثر وفاة هيردر. وليس من المستبعد أن تكون أمّها - أي جدّة أبي- هي التي يرد ذكرها في مذكّرات غوتة الشاب تحت اسم «موتْغنْ». عقدت جدّتي زواجها الثاني من المدير العام نيتشه بأيلنبورغ، وفي العاشر من شهر أكتوبر لسنة 1813؛ سنة الحرب الكبرى ،في اليوم الذي دخل فيه نابليون مع هيئة أركان الحرب إلى أيلنبورغ وضعت ابنها (الأوّل). وكسيّدة ساكسونيّة، كانت من المعجبين إعجابًا بالغًا بنابليون؛ ومن

المحتمل أنني بدوري مازلت أشاطرها هذا الإعجاب. أمّا أبي الذي ولد في سنة 1813 وتوفّي في سنة 1849، فقد عاش، قبل أن يتولّى خطة الخوري بالدائرة الكنسيّة لروكن Roecken بالقرب من لوتسن، عدّة سنوات بقصر ألتنبورغر حيث كان يقوم بتعليم الأميرات الأربع. تلميذاته الأربع هنّ: ملكة هانوفر، والأميرة الكبرى كونستنتينة، والدوقة الكبرى بأولدنبورغ، والأميرة تيريزا بساكسنْ ألتنبورغ. وقد كان عميق البرّ والولاء لملك بروسيا فريدريش فيلهلم الرابع الذي تسلّم منه خطّة الخورانيّة، لذلك كان لأحداث 1848 على نفسه وقع حزن يتجاوز كلّ الحدود.

كان مولدي في 15 من شهر أكتوبر الموافق ليوم ميلاد الملك المذكور فأُعطيتُ، للمناسبة، طبقًا لذلك إسمَيْ فريدريش-فيلهلم المتداوليْن لدى عائلة الـ هوهنْتسولّرنْ. ولقد كان لهذا التاريخ المحدّد لولادتي على العموم إيجابيّته وهي أنّ عيد ميلادي ظلّ خلال طفولتي كلّها يوم عيد (وطنيّ). وإنّني لأعتبر ذلك امتيازا كبيرا أن كان لي مثل ذلك الأب؛ بل يبدو لي أيضًا أنّ ذلك هو ما يفسّر كلّ ما أمتلك من الإمتيازات، عدا الحياة وعمليّة الإثبات الكبرى للحياة. أدين له في المقام الأول بأنّني لم أحتج أبدًا لنوايا (مسبقة) خاصّة، بل إلى مجرّد (ضرب من) الانتظار، كي أدخل بصفة عفويّة إلى عالم من الأشياء الراقية والرقيقة: هناك أشعر بنفسي في بيتي، وهناك فقط تجد صبوتي العميقة نفسها متحرّرة من كلّ القيود. ولئنْ كنت على وشك أن أدفع بحياتي ثمنا لهذا الامتياز، فإنّ هذا بالتأكيد لا يعني أنّها كانت صفقة خاسرة. بل لعلّه على المرء أن يخضع لشروط

مشابهة لهذه التي أعيشها كيما يتوصّل إلى فهم شيء من زرادشت؛ أي أن تكون له قدم في ماوراء الحياة. . .

4

لم أكن أبدًا أجيد فنّ استثارة الناس ضدّي - وإنّ هذا أيضًا ممّا أدين به لذلك الأب الذي ليس له من مثيل - حتّى وإن بدا لي ذلك من الأهمّية بمكان. بل لا أذكر أنّني استأت مرّة واحدة من نفسي - بالرغم مما يمكن أن يبدو عليه هذا الأمر من عدم تلاؤم مع السلوك المسيحيّ. وليقلّب المرء حياتي كيفما أراد فإنّه لن يجد فيها ،عدا مرّة واحدة ،أثرًا لنوايا عدوانيّة لأحد ما تجاهي؛ بل لعلّ المرء سيجد على العكس من ذلك الكثير من آثار النوايا الطيّبة . . .

إنّ تجاربي حتّى مع أولئك الذين لأغلب الناس تجارب سيئة معهم، لا تنبئ إلاّ بما هو في صالح سمعتهم؛ إنّني أروّض كلّ دبّ، وأجعل من الحمقى أناسًا مؤدّبين. وخلال السنوات السبع التي قضّيتها في تدريس الإغريقيّة للأقسام المتقدّمة بمعهد بازل لم أضطر مرّة واحدة لإعطاء عقوبة ما، بل إنّ أكسل الكسولين كانوا عندي مجتهدين. ومهما كانت الآلة؛ لتكن سيّئة التعديل كما لا يمكن إلاّ للآلة «الإنسان» أن تكون، فإنّني لا بدّ أن أكون مريضًا كي لا أظفر منها بلحن يمكن الإستماع إليه. ولكم بلغني من «الآلات» نفسها أنّه لم يسبق لها أن سمعتْ من نفسها مثل تلك الألحان (التي نطقت بها على يدي). . . لعلّ أجمل ما سمعت في هذا الصدد قد جاء على لسان ذلك الشاب الذي توفّي في سنّ تجعل الموت غير مغتفر، والذي جاء ليقضّي ثلاثة أيّام بسيلز-ماريا بعد أن بذل جهدًا كبيرًا كي

يحصل على إجازة لذلك الغرض، وكان لا يكفّ عن ترديد أنّه أبدًا ليس من أجل الأنغادين قد جاء إلى هناك. ذلك الشخص الممتاز الذي دفعت به السذاجة الطائشة لنبيل بروسيّ شابّ إلى التخبّط في المستنقع الفاغنري (وكذلك في المستنقع الدوهرينغي!) كان خلال تلك الأيّام الثلاثة كمن طرأ عليه إعصار من التغيّر والتحولّ، تماما مثل شخص قد وجد نفسه فجأة مرفوعا إلى مستوى أعالي..ـه محلّقًا بأجنحة من الغبطة. كنت أردّد له على الدوام بأنّ ذلك من مفعول الهواء الجيّد وأنّ ذلك يحصل للجميع، وأنّه ليس عبثًا أن نكون هنا على ارتفاع ستّة آلاف من الأمتار فوق مستوى بايرويت ... لكنّه لم يكن ليريد أن يصدّقني ...

ولئن حدث بالرغم من هذا كلّه أن ارتُكبت في شأني بعض الإساءات، الصغيرة منها أو الكبيرة، فإنّي لا أعزو ذلك إلى «الإرادة»، وأقلّ من ذلك في إلى «النوايا الخبيثة»، بل إنّني لأفضلّ أن أشتكي بالأحرى- كما عبّرت عن ذلك من حين - من النوايا الطيّبة التي سبّبت أضرارا غير هيّنة على حياتي. تبيح لي تجربتي أن أكون متوجّسًا تجاه كلّ ما يدعى بالغرائز «الغيرانيّة» وبصفة عامّة ذلك «الحبّ الأخويّ» ذي الإستعداد الدائم لتقديم النصح والمعونة. إنّ ذلك «الحبّ الأخويّ» يمثّل بالنسبة لي ضعفا في حدّ ذاته، وحالة مجسّدة لعدم القدرة على التصدّي للإندفاعات الإنفعاليّة. الشفقة Mitleiden لا تمثّل فضيلة إلاّ بالنسبة للمنحطّين، وما آخذه على المشفقين هو سهولة تخلّيهم عن الحياء والإحترام ورهافة الحسّ، وعدم التمسّك بالمسافة الضروريّة لحفظ اللّياقة؛ كما أنّ الشفقة سرعان ما تفوح برائحة الرّعاع وتغدو شبيهة حدّ التماهي بالسلوكات

الهجينة - إنّ أيدي الشفقة ،وهي على الأرجح أقرب إلى أن تكون مدمّرة، بإمكانها أن تتدخّل في المصائر الكبرى، وأن تمتدّ لتعميق وحدة الأنفس المكلومة ونيل الامتيازات التي يمنحها ديْنٌ ثقيل *Schuld*. إنّ تجاوز الشفقة يعدّ بالنسبة لي من ضمن الفضائل السامية، ولقد وصفت تحت عنوان «غواية زرادشت» حالة تتناهى فيها إلى أذنيْ زرادشت صرخة استغاثة عظمى، وفيها تظهر الشفقة كآخر خطيئة تستبدّ به وتسعى إلى انتزاعه من ذاته. أن يظلّ المرء هنا سيّد نفسه، وأن يحرص على الحفاظ على سموّ مهمّته نقيّا من الغرائز الوضيعة الكثيرة التي لا ترى إلى أبعد من أنفها والتي تحرّك الأفعال الغيرانيّة المزعومة، لهو الإختبار، ولعلّه الإختبار الأخير الذي كان على زرادشت اجتيازه: البرهان الحقيقيّ على قوّته . . .

5

هنالك نقطة أخرى لست فيها سوى صورة لأبي، أو امتداد له عقب وفاة مبكّرة جدًّا. إنّني، وككلّ الذين لم يعيشوا أبدًا بين نظرائهم والذين لم يكن مفهوم «القصاص» ليعني شيئًا بالنسبة لهم، تماما مثل «المساواة»، قد ثنيت نفسي في الحالات التي حصل أن ارتكبت فيها ضدّي حماقة صغيرة أو كبيرة جدًّا ،عن كلّ موقف تحصّن وعن أيّة تدابير حمائيّة، وعليه أيضًا عن كلّ دفاع وكلّ «تبرير». إنّ طريقتي في الاقتصاص تتمثّل في أن أُتبع كلّ حماقة، وبأقصى ما يمكن من السرعة بفعلة ذكيّة؛ بحيث يغدو من المحتمل تحقيق شيء من التدارك. ولكي أعبّر بلغة الأمثال والرموز: إنّني

أتناول قدحًا من مربّى الفواكه كي أزيل طعم حكاية حامضة. . . يكفي أن يرتكب أحد ما فعلة كريهة تجاهي كي أجازيه على ذلك مباشرة. إنّ ذلك أمر مؤكّد؛ ليكن الجميع على يقين من ذلك. سأجد دوما، إن عاجلا أو آجلا، مناسبة ما لأتقدّم بالشكر لـ«المسيء» (أحيانًا عن إساءته أيضًا)، أو لأطلب منه شيئًا ما، وهو ما يمكن أن يكون أكثر إلزامًا من فعل العطاء . . .

يبدو لي أيضًا أنّ الكلمة الأكثر فجاجة، والرسالة الأكثر خشونة تظلّ أكثر فضلا وأكثر شرفا من الصمت. فأولئك الذين يركنون إلى الصمت هم الذين يفتقرون دومًا إلى اللياقة وسماحة القلب. إنّ الصمت اعتراض، لكنّ تجرّع الغصص ينتج عنه حتمًا فساد الطبع؛ بل أنّه يفسد حتّى المعدة. كلّ الصموتين هم من المصابين بسوء الهضم. - واضح إذًا أنّني لا أحبّذ أن لا تحظى الفظاظة بما تستحقّ من الاعتبار؛ إنّها في نظري الشكل الأكثر إنسانيّة للتعبير عن التناقض، وهي إحدى فضائلنا الأساسيّة في ظلّ الميوعة الحديثة. إنّها لسعادة حقيقيّة أن يكون المرء على خطإ إذا ما كان غنيًّا بما فيه الكفاية. وإنّ إلهاً يحلّ على الأرض لن يسعه أن يفعل سوى ارتكاب المظالم؛ أن يأخذ الواحد على عاتقه مسؤوليّة الخطأ وليس العقوبة، ذلك هو ما يمكن أن يكون بحقّ ألوهيًّا.

6

التخلّص من الضغينة، والوضوح تجاه الضغينة - من يدري إن لم أكن بالنهاية مدينًا في ذلك إلى مرضي الطويل! فالمسألة ليست

على شيء من البساطة، وعلى المرء أن يكون قد خبر ذلك من خلال القوّة ومن خلال الضعف. وإذا ما كان هناك ما يمكن أن يأخذه المرء على حالة المرض وعلى حالة الضعف إنما هو الوهن الذي يصيب غريزة المعافاة لدى الإنسان؛ سلاحه وغريزته الدفاعيّة. في حالة المرض يغدو الإنسان عاجزًا عن التخلّص من أيّ شيء، عاجزًا عن الحسم في أيّ شيء وعاجزًا عن ردّ أيّ شيء؛ كلّ شيء يغدو جارحًا. تتقارب الأشياء مع الإنسان بصفة وقحة مزعجة، حدّ التلاصق؛ الأحداث تصيب في العمق، والذكرى تغدو جرحًا متقيّحا. إنّ المرض ضرب من الاضطغان في حدّ ذاته، وليس للمريض في مواجهة هذه الحالة سوى وسيلة علاج وحيدة أسمّيها الاستسلام الروسيّ للقدر؛ ذلك الاستسلام دون ثورة الذي يجعل جنديًا روسيًا متبرّمًا من شدّة الغزوة ينتهي بأن يستلقي (دون عناء) في الجليد: أن يتوقّف المرء نهائيًا عن تناول أيّ شيء، عن تقبّل وإدماج أيّ دواء، ويعدل عن كلّ نوع من التفاعل. إنّ الحكمة في هذا الاستسلام الذي ليس دومًا موقف شجاعة تجاه الموت بل ضربًا من الحفاظ على الحياة في ظروف تهدّد بالهلاك، إنّما تتمثّل في تخفيض وتيرة تحويل الطاقات الغذائيّة بحيث يغدو هبوطها بمثابة الكمون الشتويّ. خطوة أخرى في هذا الاتّجاه وسيلتقي المرء بالفقير الصوفيّ الذي يظلّ لأسابيع نائما داخل مغارة . . . بما أنّ الإنسان سيستهلك نفسه بسرعة إذا ما حاول القيام بأيّ ردّ فعل، فإنّه يمتنع إذًا عن كلّ عمل؛ تلك هي الحكمة. ليس هنالك من شيء يجعل الإنسان يستنفد نفسه بأقصى السرعة مثل الانفعالات المتأتّية عن الضغينة. إنّ الانزعاج، والتأذّي المرضيّ، والشعور بالعجز عن

الانتقام، والرغبة المتعطّشة إلى القصاص وإعداد السموم من كلّ لون، لهي بالتأكيد من أكثر ردود الفعل ضررًا على الكائن المنهك؛ إنّها تستوجب استهلاكا أسرع للطاقات العصبيّة وتفاقما مرضيًا للإفرازات الغدديّة المضرّة كالاستفراغات المراريّة داخل المعدة على سبيل المثال. إنّ الاضطغان هو الممنوع بعينه بالنسبة للمريض - هلاكه، لكنّه وللأسف نزوعه الطبيعيّ أيضًا. لقد أدرك الفزيولوجي العميق بوذا هذا الأمر، فـ«ديانته» التي أرى من الأفضل أن نسمّيها بـالنظام الصحيّ كي لا نخلط بينها وبين أشياء هي في الواقع مدعاة إلى الشفقة مثل المسيحيّة، تجعل فعاليتها مشروطة بالانتصار على الضغينة: تحرير الروح من سيطرتها كخطوة أولى باتجاه التعافي. «ليس بالعداوة يمكن التغلّب على العداوة، بل بالصداقة يؤتى على العداوة»: إنّها أولى تعاليم بوذا - ليست الأخلاق هي التي تتكلّم هكذا، بل الفزيولوجيا(النظام الصحيّ) -. إنّ الإضطغان كإفراز للضعف والهشاشة لهو أكثر ضررًا على الضعفاء دون غيرهم، أمّا في حالة توفّر الشروط الصحيّة لطبيعة ثريّة (متماسكة) فإنّه سيغدو مجرّد شعور فائض عن اللزوم؛ شعور تنبئ مقاومته والتحكّم فيه عن رصيد ثريّ من القوّة. وإنّ كلّ من استطاع أن يتمثّل الجديّة التي حاربت بها فلسفتي الانتقامَ ومشاعرَ الضغينة، واستبطن تعاليم «الإرادة الحرّة» - ليست مقاومة المسيحيّة سوى إحدى وجوهها - سيدرك لِم أعرض هنا بوضوح سلوكاتي الشخصيّة وسلامة غرائزي في المجال العملي. لقد حضرت على نفسي مثل هذه المشاعر كأمر خطير ومضرّ في ظروف تدهوري، لكن حالما تدعّمت طاقات الحياة وكبرياؤها لديّ من جديد حظرتها على نفسي كشيء دون منزلتي. ذلك «الاستسلام

الروسيّ» الذي تحدّثت عنه قبل قليل تجسّد لديّ في تمسّكي العنيف ولسنوات عديدة بكلّ الأوضاع والأمكنة والمسكن والعلاقات البشريّة الممنوحة لي من قبل الصدفة والتي كانت لا تُحتمل في أغلب الأحيان. كان ذلك أفضل من تغييرها، ومن الشعور بها قابلة للتغيير؛ أفضل من القيام بعمل تمرّد عليها... وكنت في تلك الأثناء أشعر بنقمة قاتلة على كلّ من حاول أن يزعج هذا الاستسلام، وكل من حاول إيقاظي بعنف- لقد كان ذلك في كلّ مرّة بالفعل بمثابة الخطر القاتل -. في مثل تلك الظروف كانت غاية الحكمة أن يتقبّل المرء نفسه كقدر، وأن لا يرغب في أن يرى نفسه «شيئًا آخر».

7

شيء آخر هي الحرب. إنّني ذو مؤهلات حربيّة بطبعي. الهجوم هو إحدى غرائزي. أن يكون الواحد قادرًا على المعاداة، أن يكون عدوًّا يتطلّب التمتّع بطبع قويّ، وعلى أيّة حال فإنّ ذلك أمر مقترن بكلّ طبيعة قويّة؛ إذ هذه الأخيرة تحتاج إلى مقاومة، ولذلك تبحث لها عن مقاومة: النزوع العدوانيّ ينتمي بنفس الموجب الضروري إلى القوّة، كما تنتمي مشاعر الضغينة والنزوع إلى الانتقام إلى الضعف. فالمرأة مثلا ذات نزوع انتقاميّ وهو أمر مرتبط بضعفها، تمامًا مثل حساسيّتها تجاه بؤس الآخرين. إنّ قوّة المهاجم العدوانيّ تجد في الخصم الذي تحتاجه نوعًا من المقياس؛ وكل عمليّة نموّ تعبّر عن نفسها في البحث عن خصم عنيف - أو في مشكل عويص، وإن فيلسوفًا ذا طبع عراكيّ يستفزّ أيضًا مسائل

للمنازلة. والغاية من وراء ذلك ليس الانتصار على العوائق بصفة عامّة، بل فرض السيطرة على تلك التي تستوجب منازلتها استدعاء وتوظيف كلّ الطاقات، وكلّ البراعات وكلّ الفنون الحربيّة؛ أي على خصم ندّ. إنّ المساواة مع العدوّ هي الشرط الأوّل لنزال شريف، وحيثما يوجد مجال للاحتقار لا يمكن للمرء أن يخوض حربًا. حيث يكون بإمكان المرء أن يأمر، وحيث يرى مستوى أدنى، لا ينبغي له أن يخوض حربًا. إنّ ممارستي الحربيّة تتلخّص في أربعة مبادئ: أوّلا: لا أهاجم إلاّ ما هو مجلبة للنصر، وإن اقتضى الأمر، أنتظر حتّى يصبح بإمكانه أن يكون مجلبة للنصر. ثانيًا: لا أهاجم إلاّ ما لا حليف لي عليه؛ حيث أقف وحيدًا في المعركة، وحيث لا أورّط إلاّ نفسي... إنّني لم أقم البتّة بخطوة واحدة لم تكن مورّطة: ذلك هو مقياسي الشخصيّ للسلوك الصحيح. ثالثا: لا أهاجم البتّة الأشخاص كأشخاص، بل أستعمل الأشخاص كزجاج مكبّر يمكن للمرء بواسطته أن يجعل كارثة عمومية مراوِغة ومتستّرة ومستعصية على الإدراك أمرًا مرئيًّا واضحًا للعيان. هكذا هاجمت دافيد شتراوس، أو بصفة أدقّ النجاحَ الذي لقيه داخل «الثقافة» الألمانيّة كتاب مهترئ تجاوزته الأحداث، وبذلك استطعت أن أضع يدي على تلك الثقافة وهي في حالة تلبّس... وهكذا هاجمت فاغنر، أو بصفة أدقّ الطابع المزيّف والهجين لـ«ثقافتنا» التي تخلط بين الأغنياء ورفيعي الشأن، وبين المتأخّرين والعظماء. رابعًا: لا أهاجم إلاّ ما هو خال من كلّ خلاف شخصيّ ومن كلّ خلفيّات التجارب السيئة. بل على العكس من ذلك فإنّ المهاجمة تعني لديّ دليلا على التقدير، وفي بعض الأحيان اعترافا بالجميل. إنّني أغمر بالشرف وبالتمييز كلّ ما ألحق

اسمي به، شيئًا كان أو شخصًا؛ سواءٌ لديّ أكان ذلك لصالحه أم ضدّه. وعندما أعلن الحرب على المسيحيّة فإنني أفعل ذلك من موقع المستحقّ لكوني لم أتعرّض من هذه الناحية لأيّة مضايقة ولا أيّة عرقلة؛ لقد كان المسيحيّون الجديّون يحظون على الدوام بتقديري. وإنّني كمناهض للمسيحيّة السائدة *de rigueur*، أبعد ما يكون عن أن أؤاخذ الأفراد بأشياء سبّبها عمل الآلاف من السنين.

8

هل يمكنني أن أجرؤ على ذكر عنصر أخير من ملامح طبيعتي؛ تلك التي جلبت لي في علاقاتي مع البشر صعوبات ليست بالهيّنة؟ إنّ غريزة النقاوة لديّ تتمتّع بحساسيّة مرهفة رهيبة تجعلني أدرك فزيولوجيًّا قرب - ماذا أقول؟ - بل الأعماق الحميميّة والأحشاء الدفينة لكل نفس؛ أشتمّها... لديّ بفعل هذه الحساسيّة هوائيّات نفسانيّة تمكّنني من جسّ كلّ الأسرار وتناولها بقبضتي؛ كلّ القذارات الخفيّة القابعة في الأعماق القصوى لبعض الطبائع، المتأتّية من فساد الدّم والمغمورة بطلاء التّربية، كلّها تتجلّى لي واضحة منذ الملامسة الأولى تقريبًا. أمّا إذا ما أمعنت النظر ودقّقت فإنّ تلك الطبائع التي لا تتلاءم ونقاوتي تستشعر بدورها الحذر المتولّد عن قرفي؛ غير أنّ ذلك لن يجعلها أذكى رائحة ... إنّني أستحمّ وأسبح وأتمرّغ على الدّوام، بشكل ما، في مياه صافية؛ في أيّ عنصر كامل شفّاف ولامع الصفاء، كما تعوّدت دومًا - إنّ نقاوة مطلقة من حولي لهي شرط حياتيٌّ بالنسبة لوجودي؛ أنا أهلك داخل شروط وجود غير نقيّة -.

ذلك هو ما يجعل من علاقاتي مع البشر امتحانًا غير يسير لطاقة تحمّلي؛ إنّ «إنسانيّتي» لا تتمثّل في التعاطف مع الإنسان في وجوده، بل في أن أتحمّل الشعور به إلى جانبي. . . إنسانيّتي هي تجاوز متواصل للذات. إلاّ أنّني بحاجة إلى العزلة، أعني إلى المعافاة، وإلى العودة إلى الذّات والتنفّس من هواء خفيف لاعب طلق. . .

إنّ زرادشت بكلّيته نشيد مدائحيّ للعزلة، أو للنقاوة، إذا ما تمّ فهمي جيّدًا. . . ولحسن الحظّ ليس لـ **الحمق الخالص** - ومن لديه عينان لتمييز الألوان فسيسمّيه ماسًا. إنّ القرف الذي يثيره فيَّ البشر، القرف تجاه «الرّعاع»، كان دومًا أكبر خطر عليّ. هلاّ استمعنا إلى الكلام الذي يتحدّث به زرادشت عن الخلاص من القرف؟

ما الذي حدث لي إذًا؟ كيف خلّصت نفسي من القرف؟ من الذي أعاد إلى عينيّ فتوّتهما؟ كيف طرت إلى هذه الأعالي حيث لا يجلس أيّ من الرّعاع إلى النبع؟

أهو قرفي الذي صنع لي أجنحة وقدرة على استشعار الينابيع؟ لقد طرت في الحقيقة عاليًا حتّى تمكّنت من أن أجد نبع الفرح من جديد!

لقد وجدته يا إخوتي! هنا في الأعالي يتدفّق لي نبع الفرح! وهنا حياة لا يكرع معي منها أحد من الرّعاع!

بعنف يكاد يكون قاسيًا عليّ تتدفّق أيها النبع! وأحيانًا تُفرغ الإناء فيما أنت تريد ملأه.

عليّ أن أتعلّم كيف أقترب منك بتواضع، فقلبي يندفع إليك بعنف شديد هو الآخر:

- قلبي الذي يتوقّد فوقه صيْفي، صيفي القصير، الساخن، الكئيب والمغمور بالفرح: لكم يتحرّق قلبي الصيفيّ إلى طراوة بردك أيها النبع!

وداعًا كآبة الربيع المتردّدة! وداعًا ندفاتِ ثلج خبثي في شهر حزيران. صيفًا غدوت بكلّيتي، وظهيرةَ صيفٍ،

صيفٌ في الأعالي مع نبع طريّ وسكينة سعيدة: تعالوا، أي أصدقائي كي تغدو السكينة أكثر سعادة!

فهذه هي أعالينا وموطننا: بالغُ العلوّ مسكنُنا، وطريقه وعرٌ على الملوّثين وعلى لهفة أطماعهم.

ألقوا نظرة بعيونكم النقيّة في نبع فرحي أيها الأصدقاء! أنى له أن يتعكّر من جرّاء ذلك؟ بل ضاحكًا سيقابلكم بصفائه. فوق شجرة المستقبل نبني عشّنا؛ وغذاؤنا ستحمله لنا الصقور في مناقيرها، نحن المنعزلون!

حقًّا أقول لكم إنّه لن يكون غذاءً يقاسمنا إياه النّجسون! جمرًا سيحسبون ذلك الذي يتناولونه، وستحترق أشداقهم به.

حقًّا أقول لكم، إنّنا لا نعِدّ هنا مواطن للملوّثين! كهف صقيع ستكون سعادتنا على أجسامهم وعقولهم!

وكما الرياح العاتية نريد أن نحيا فوقهم، جيرانًا للصقور، جيرانًا للثلج، جيرانًا للشمس: كذا تحيا الرياح العاتية.

كما الريح أريد أن أعصف بينهم ذات يوم، وبعقلي أقطع أنفاس عقولهم: ذلك ما يريده مستقبلي.

حقّاً أقول لكم، ريح شديدة هو زرادشت في وجه كلّ الأراذل، وإنّه لينصح أعداءه وكلّ من يبصق ويتقيّأ: إيّاكم والبصاق في وجه الريح!...

لِـم أنا على هذا القدر من الذكاء

1

لِـم أنـا أعـرف أشـياء أكثر من غيري؟ وعـلـى الـعـمـوم مـا الـذي يجعلني على هذا القدر من الذكاء؟ إنّني لم أفكّر أبدًا في مسائل لا تستحقّ هذا الإسم: لم أبدّد نفسي هكذا - والأزمات الدينيّة الحقيقيّة على سبيل المثال لا أعرفها عن تجربة. لم أتمكّن البتّة من فهم إلى أيّ مدى يمكن اعتباري «مذنبًا». وفي الوقت نفسه ينقصني المعيار ذو المصداقيّة لمعرفة ما هو تأنيب الضمير: واعتمادًا على ما يسمعه المرء حول هذا الأمر فإنّ تأنيب الضمير يبدو لي شيئًا لا يستحقّ التقدير... إنّني لا أحبّ أن أتنكّر لعمل بعد القيام به، بل أفضّل أن أفصل مبدئيًّا النهايات السيّئة والنتائج عن مسألة القيمة. فعندما يؤول عمل إلى نهاية سيّئة يفقد المرء القدرة على النظر نظرة صحيحة إلى العمل الذي قام به؛ وإنّ تأنيب الضمير يبدو لي ضربا من الإصابة «بعين شرّيرة». بل إنّ عملا قد أخطأ الهدف يبدو لي جديرًا بالتقدير، بالذّات لأنّه أخطأ الهدف؛ إنّ هذا لممّا يوافق قيمي الأخلاقيّة أكثر.

«الله» و«خلود الروح» و«الخلاص» و«الآخرة» كلها مفاهيم لم أعرها اهتمامي ولا منحتها وقتي البتّة، ولا حتّى كصبيّ؛ لعلّني لم أكن صبيانيًا بما فيه الكفاية لمثل هذه الأشياء؟ لم أعرف الإلحاد إطلاقًا كنتيجة، وأقلّ من ذلك كحدث: إنّه أمر بديهيّ لديّ، ومن قبيل الغريزة. فأنا فضوليّ جدًّا وشكّاك جدًّا ومستخفّ جدًّا كيما أقبل بجواب بهيأة قبضة اليد. إنّ الله جواب بهيأة قبضة اليد ،وقلّة لياقة تجاهنا نحن المفكّرين - بل هو في الواقع مجرّد ممنوع بهيأة قبضة اليد: لا ينبغي أن تفكّروا!... وبالمقابل يتّجه اهتمامي إلى مسألة أخرى يتوقّف عليها «خلاص البشريّة» أكثر من أيّة غرائب لاهوتيّين، الا وهي مسألة التغذية. ويمكن أن نصوغ هذه المسألة في شكل سؤال مرتبط بالاستعمال اليومي: «كيف ينبغي عليك، أنت، أن تتغذّى كي تتوصّل إلى الحصول على أكثر ما يمكن من الطاقة والفضيلة بالمعنى الذي تعطيه "النهضة" للفضيلة المعافاة من مرض الأخلاقانيّة *؟» إنّ تجربتي الشخصيّة في هذا المجال على غاية من السوء، وإنّي لأعجب كيف لم أطرح على نفسي هذا السؤال إلاّ بصفة متأخّرة جدًّا وكيف لم أهتد من خلال تجاربي إلى «الصواب» إلاّ متأخّرًا. وحده الهوان المكتمل للتربية الألمانيّة - «مثاليتها» - بإمكانه أن يفسّر إلى حدّ ما لِم كنت في هذا المجال بالذات متأخّرًا حدّ التبتّل الزهدي. تلك «التربية» التي تعلّم منذ البداية عدم الاكتراث بالأشياء الواقعيّة من أجل الانشغال كليًّا بملاحقة أهداف مثاليّة مزعومة مثل: «التكوين الكلاسيكي» - كما لو أنّها لم تكن محكومة سلفًا بالمزج بين «كلاسيكي» و«ألماني» ضمن مفهوم واحد! وأكثر من ذلك، إنّه أمر مثير للسرور؛ ليتصوّر

المرء فقط مواطنًا لايبزخيًّا «ذا تكوين كلاسيكي»!

بالفعل كنت حتّى بلوغ سنيّ النضج لا أتغذّى إلاّ بصفة رديئة، أو بتعبير أخلاقي، بطريقة «لاشخصيّة»، و«لا ذاتيّة»، و«غيرانيّة»، لحسن حظّ الطبّاخين وغيرهم ممّن يعيش حولي. عن طريق المطبخ اللايبزغي، وفي تزامن مع دراستي الأولى لشوبنهاور (1865)، انتهيت إلى نفي «إرادة الحياة » لديّ بصفة جديّة. أن يقدر المرء على تخريب معدته بكمّيات غير كافية من الغذاء؛ تلك مسألة يمكن للمطبخ اللايبزغي أن يتكفّل بإنجازها على نحو مذهل ودون عناء. (يقال أن سنة 1866 قد جاءت بتحوّل في هذا المجال) لكن، كم من المساوئ والخطايا التي يمكن أن يسجّلها المرء على حساب المطبخ الألمانيّ عمومًا! الثريد قبل الوجبة (ما ظلّ يسمّى في كتب الطبخ بالبندقيّة للقرن السادس عشر بـ *alla tedesca*)؛ اللحوم المطبوخة جدًا، والخضار المصنوعة المتحوّلة دهنيّة ونشويّة، والحلويّات الفاسدة المتحوّلة إلى قوالب ثقّالات الورق! وإذا ما أضفنا إلى ذلك تلك الحاجة الحيوانيّة بامتياز؛ الحاجة إلى الشراب بعد الأكل التي عند الألمان العريقين، وليس فقط لدى الألمان المتقدّمين في السنّ، فإنّه سيكون بإمكاننا فهم أصل **العقل الألماني**؛ عقل طالع من أمعاء كدِرة... العقل الألماني يمثّل حالة سوء هضم؛ إنّه لا يستطيع أن يحسم في أيّ شيء. غير أنّ النظام الغذائي (Diaet) الأنجليزي، الذي يمثّل مقارنة مع النظام الألماني، وحتّى الفرنسي، ضربًا من «العودة إلى الطبيعة»، بما معناه إلى «الكانيباليّة»، هو أيضًا لا يوافق طبعي الخاص ويتناقض معه في العمق؛ إنّه يبدو لي كما لو أنّه يمنح العقل قدمين ثقيلتين؛ قدمي امرأة انجليزيّة... أفضل مطبخ هو

مطبخ الـ *Piemonts*. المشروبات الكحوليّة مضرّة بالنسبة لي؛ يكفيني كأس واحدة من النبيذ أو البيرة في اليوم كيما تتحوّل الحياة لديّ إلى «وادي دموع». في ميونيخ يعيش أضدادي. وحتّى إذا ما اعتبرنا أنّني لم أفهم هذه المسألة إلاّ بصفة متأخّرة نسبيًّا، فإنّي في الواقع قد خبرتها حدسًا وذلك منذ صباي. كصبيّ كنت أعتقد أنّ شرب الخمر تماما مثل التدخين، يبدأ كمجرّد غرور شباب ثمّ يتحوّل من بعد إلى عادة سيّئة. ولعلّ لنبيذ ناونبورغ قسطًا من المسؤوليّة في هذا الحكم القاسي. وكي ما أعتقد بأنّ الخمر يبعث الانشراح فلا بدّ لي أن أكون مسيحيًّا؛ أعني بذلك أن أكون مؤمنًا، وهو أمر يعدّ بالنسبة لي أنا بالذات عبثًا. والغريب في الأمر أنه بقدر ما تجعلني المقادير الصغيرة المخفّفة في حالة قصوى من التعكّر، فإنّ المشروبات المكثّفة القويّة تحوّلني إلى نوتيّ حقيقيّ. منذ صباي كنت أستمدّ بسالتي من هذا الأمر. أن أحرّر في ليلة واحدة مقالة مطوّلة في اللاتينيّة ثمّ أنقلها في نسخة نهائيّة نظيفة، محاولا أن أشحن قلمي بطموح النسج على منوال قدوتي المثلى Sallust في الدقّة وكثافة الأسلوب ساكبًا على لاتينيّتي شيئًا من شراب الروم ذي العيار الثقيل، كلّ ذلك لم يكن، وأنا بعد تلميذ بمدرسة بفورتا Pforta المجيدة، ليتناقض وبنيتي الفزيولوجيّة، ولا مع فزيولوجية Sallust أيضًا - وإن كانت مدرسة بفورتا المجيدة على غير هذا الموقف. بعدها، وفي حوالي منتصف العمر، رحت أتّخذ موقفًا أكثر فأكثر صرامة ضدّ المشروبات الروحيّة. أنا المناهض عن تجربة للنّباتيّة، تمامًا مثل ريتشارد فاغنر الذي صيّرني إلى مذهبه لا أراني إلاّ مقصّرًا، مهما فعلت، في نصح كلّ ذي موهبة عقليّة على

الإمساك كليًّا عن تناول الكحوليّات. الماء قادر على الإيفاء بالغرض... وأنا أفضّل دوما الأماكن التي يستطيع المرء فيها أن يرد من الينابيع الجارية (نيس، تورينو، سيلز)؛ إنّ كأسا صغيرة تتبعني مثل كلب! *In vino veritas* – في الخمر الحقيقة: يبدو أنّني هنا أيضًا لا أتّفق مع العالم بكلّيته بخصوص مفهوم «الحقيقة» – العقل يطفو فوق المياه بالنسبة لي...

إليكم بعض الإشارات الإضافيّة من أخلاقيّاتي. إنّ وجبة ثرية أيسر هضمًا من وجبة غير كافية. أن تنطلق المعدة في النشاط ككلّ؛ ذلك شرط أوّلي لعمليّة هضم جيّدة. على المرء أن يكون عارفًا بحجم معدته. ولأسباب مماثلة يتعيّن تلافى الوجبات المطوّلة التي أسمّيها بطقوس القربان ذات الفصول العديدة؛ وجبات موائد الضيافة *table d'hote*. لا أكل بين الوجبات، ولا قهوة: القهوة تعكّر المزاج. أما الشاي فنافع في الصباح فقط؛ ومن الأفضل تناوله بكمّيات قليلة وقويّة: إنّ الشاي يصبح مضرًا ومجلباً للكدر على طوال اليوم إذا ما كان خفيفًا أكثر من اللزوم. ولكلّ معياره الخاصّ ومقدار يتأرجح غالبًا بين الحدود الأكثر ضيقا والأكثردقّة. وفي ظروف مناخيّة مزعجة يكون تناول الشاي على الرّيق غير مستحسن: على المرء أن يتناول قدحًا من الكاكاو الثخين الخالي من الدهون ساعة قبل الشاي. الحرص على الجلوس أقلّ ما يمكن؛ لا تثقوا في فكرة لم تلد في الفضاء المفتوح وفي التحرّك الحرّ حيث عضلات الجسم أيضًا تشترك في الإحتفال. كلّ الأفكار المسبّقة تأتي من الأحشاء. إنّ «الطيز الخامل»، كما قلت ذلك ذات مرّة، لهو الخطيئة الحقيقيّة ضدّ الروح القدس.

2

إنّ مسألة التغذية مقترنة أيضًا بالسؤال المتعلّق بالمكان والمناخ. ليس بإمكان أيّ كان أن يعيش في أيّ مكان؛ ومن كان يشتغل على حلّ مسائل كبرى تستدعي توظيف كلّ طاقاته للمجابهة سيجد نفسه أمام مجال ضيّق للاختيار. فتأثير المناخ على الإستقلاب الكيميائي(*)؛ عرقلتها، أو تعجيل نسقها أمر على غاية من الأهميّة، بحيث أنّ خطأ في اختيار المكان أو المناخ من شأنه لا فقط أن يبعد شخصًا عن حقل اهتماماته، بل سيمنعه منها تمامًا: ستغيب عن نظره وتضمحلّ. فالقوّة الحيوانيّة لم تبلغ لديه مقدارًا كافيًا كي يتوصّل إلى تلك الحريّة العقليّة المتدفّقة التي تجعله يقرّ: إنّني أقدر على هذا الأمر لوحدي... إنّ خمولا صغيرًا للأمعاء يكفي إذا ما تحوّل إلى عادة سيّئة لأن يجعل من عبقريّ شيئًا رديئًا؛ شيئًا «ألمانيًّا». والمناخ الألماني كاف لوحده لتثبيط عزيمة أمعاء متينة، بل وحتّى أمعاء رانية إلى البطولة. إنّ نسق الاستقلاب الكيميائيّ في علاقة مباشرة دقيقة مع حركيّة أو شلل قدمي العقل؛ والعقل في حدّ ذاته ليس سوى نوع من هذا الاستقلاب الكيميائي. فلنحصر الأماكن التي ظلّ يوجد بها على الدّوام (ماضيًا وحاضرا) أناس من ذوي العقول الثريّة؛ حيث التوثّب الذهني والرهافة والخبث من مكوّنات السعادة، وحيث تجد العبقريّة موطنًا لها، وسنجد أنّها كانت تتميّز كلّها بهواء جافّ. باريس، والبروفانس، وفلورنسا، والقدس، وأثينا؛ كلّها أسماء تثبت شيئًا محدّدًا وهو: إنّ العبقريّة محدّدة بالهواء الجافّ وبالسماء الصافية

(*) الأيض: تحوّل العناصر الكيميائيّة داخل الجسد.

- يعني أنّها محدّدة بالاستقلاب الكيميائي السريع وبإمكانيّة التموّن بكميّات كبيرة، بل وحتّى كمّيات خياليّة من الطاقة. أمام عينيّ الآن يمثل نموذج حيّ لعقل متحرّر ذي شأن كبير قد تحوّل بسبب نقص في رهافة الحسّ تجاه المسائل المناخيّة إلى عقل ضيّق، زاحف، اختصاصيّ ومعكّر المزاج. وقد كدت بدوري أن أبلغ هذه الحالة لو لم يُعذني المرض إلى رشدي ويدفع بي إلى التفكير في الحكمة التي داخل الواقع. الآن وقد غدا بإمكاني بفضل تجربة طويلة أن أقرأ التأثيرات ذات الأصل المناخيّ والطقسيّ على نفسي كما لو كنت أقرؤُها فوق جهاز دقيق وموثوق به، وأنا أضبط فزيولوجيًّا تغيّر درجات الرطوبة على نفسي خلال سفري من تورينو إلى ميلانو، أفكّر بذعر في الحقيقة المرعبة المتمثّلة في أنني قضّيت حياتي كلّها حتّى العشر سنوات الأخيرة (السنوات التي كنت مهدّدًا خلالها بالهلاك) في الأماكن غير المناسبة وبالذات الأماكن الممنوعة عليّ؛ ناونبارغ، وبفورتا، وتورينغن بصفة عامّة، ولايبزخ وبازل والبندقيّة، أماكن وبال عديدة على تركيبتي الفزيولوجيّة. وإذا ما بدت لي طفولتي اليوم وكلّ سنوات شبابي خالية في مجملها من أيّة ذكرى سعيدة، فإنّه سيكون من الحمق أن أعزو ذلك إلى ما يدعى بالأسباب «المعنويّة»، مثل الافتقار إلى علاقات اجتماعيّة كافية؛ ذلك أنّ هذا النقص ما يزال قائمًا لديّ إلى اليوم كما كان من قبل دون أن يمنعني اليوم من أن أكون مرحًا وشجاعا. بل إنّ الجهل في المجال الفزيولوجي - «المثاليّة» اللعينة - هو الذي كان القدر المشؤوم الحقيقيّ في حياتي، ما كان غبيًّا وتافهًا فيها؛ شيء لم ينتج عنه أيّ أمر جيّد، وليس له من معدِّل أو تعويض. انطلاقًا من هذه المثاليّة

يمكنني اليوم أن أفسّر لنفسي كلّ الخيارات الخاطئة وكلّ الضلالات الغريزيّة والأعمال «المتواضعة» التي حادت بي عن المهمّة الحقيقيّة لحياتي. لِم صرت فيلولوجيًّا مثلا، وليس طبيبًا على الأقلّ أو أيّ شيء آخر ممّا يمكنه أن يفتح عينيّ؟ أثناء تلك الفترة التي قضّيتها ببازل كان «النظام الغذائي» الذهني الذي أخضعت نفسي له بكلّيته، بما في ذلك توزيع الأوقات، تبديدًا متناهي الحماقة لطاقات خارقة للعادة دون أيّ تعويض بالتموّن بطاقات جديدة، ودون حتّى مجرّد التفكير في مسائل الاستنفاد والتعويض. إنّه غيابُ أدنى حدّ من الأنا-نيّة وأدنى حدّ من الحفاظ على غريزة السيادة الحازمة؛ كان تماهيًا مع أيّ كان، «نكرانًا للذات» وتجاهلا للزوم المسافة الضروريّة - شيء لا أغتفره لنفسي أبدًا. عندما أشرفت على النهاية، وبحكم كوني كنت مشرفًا على نهاية طاقاتي، عندها بدأت أفكّر في ذلك السبب العميق لعدم صواب حياتي: «المثاليّة». إنّ المرض هو الذي أعادني إلى الصّواب.

3

اختيار الغذاء المناسب، واختيار المكان والمناخ، ثمّ العنصر الثالث الذي لا ينبغي على المرء بأيّ حال من الأحوال أن يرتكب فيه خطأً ألا وهو اختيار نوعية الاستراحة المناسبة لكلّ شخص. هنا أيضًا فإنّ حدود المباح؛ يعني حدود النافع تغدو ضيّقة أكثر فأكثر، وذلك حسب درجة التميّز والاستقلاليّة *sui generis* التي يكون عليها عقل ما. وبالنسبة لحالتي الشخصيّة فإنّ كلّ أنواع القراءة تعدّ استراحة، وهي من الأشياء التي تبعدني عن نفسي وتمكّنني من

التفسّح بين علوم وأنفس غريبة عنّي - أي في ما لم أعد آخذه بجديّة. إنّ القراءة تريحني بالفعل من جديّتي. في الأوقات التي أكون منشغلا فيها انشغالا عميقًا بالعمل لن يلاحظ المرء كتبًا لديّ؛ إنّني أحرص على أن لا أدع أحدًا يتكلّم أو حتّى يفكّر بجواري. وذلك هو ما يحدث إذا ما قرأت... هل لاحظتم أنّه خلال ذلك التوتّر العميق الذي يفرضه الحَمْل على العقل وعلى كامل الجسم عمومًا تكون المصادفات والمثيرات الخارجيّة من كلّ نوع شديدة العنف، عميقة التأثير؟ على المرء أن يتجنّب قدر الإمكان كلّ المصادفات، وكلّ المؤثّرات الخارجيّة؛ إنّ نوعًا من الانغلاق مع سَدّ كلّ المنافذ لهو من العناصر الأوّليّة «للذكاء الغريزيّ» للحَمْل الذّهني. هل سأسمح لفكرة غريبة أن تتسلّق الجدار الذي ضربته على نفسي؟ إنني سأفعل ذلك بالتأكيد إذا ما قرأت. أما بعد أوقات العمل والعطاء يأتي وقت الاستراحة؛ إليّ إذن أيتها الكتب الممتعة، وأنت أيتها الكتب الدّسمة والكتب الذكيّة!

هل ستكون كتبًا ألمانيّة؟... لا بدّ أن أعود نصف سنة إلى الوراء كي أضبط نفسي ممسكًا بكتاب. ماذا كان ذلك؟ كانت دراسة قيّمة لفيكتور بروشارت: *les sceptiques grecs* (الريبيّون الإغريق) وفيها قد تمّ استغلال مؤلّفي حول *Laertii Diogenes* على أحسن وجه(*). إنّني أعتبر الريبيّين بمثابة النمط الوحيد الجدير بالتقدير من مجمل رهط الفلاسفة ذوي الأفكار المشتبهة والمعاني الضاربة في

(*) حرر نيتشه سنة 1868 وهو في سنّ الثالثة والعشرين مقالة حول ديوجينس (*de Laertii Diogenis fontibus*) نشرت بمجلّة *Rheinisches Museum* تحت إشراف أستاذه ريتشل. (المترجم)

كلّ الاتّجاهات. . . ! وفيما عدا ذلك ألوذ دومًا بنفس الكتب، وهو في المجمل عدد ضئيل من تلك التي أعتبرها قد أقامت الدليل على أهمّيتها بالنسبة لي. ولعلّه ليس من طبعي أن أقرأ كثيرًا وبصفة متنوّعة: إنّ قاعة مطالعة تصيبني بالإرهاق. كما أنّه ليس من طبعي أن أحبّ كثيرًا، وأن أحبّ أشياء متنوّعة. إنّ الحذر، بل وحتّى معاداة الكتب الجديدة أقرب إلى غريزتي من «التسامح» و*largeur du coeur* (رحابة الصدر) وغيرها من الأشياء التي على شاكلة «حبّ القريب» *L'amour du prochain*. إجمالا، هناك عدد قليل من الكتّاب الفرنسيّين العريقين أعود إليهم على الدوام: إنّني لا أؤمن إلاّ بالثقافة الفرنسيّة، أمّا كلّ ما عدا ذلك ممّا يطلق على نفسه اسم «الثقافة» في كلّ أوروبا فلا أعتبره سوى ظاهرة سوء فهم، ليس إلاّ - ولا داعي طبعًا للكلام عن الثقافة الألمانيّة. حتّى الحالات القليلة من ذوي الثقافة الراقية الذين التقيتهم في ألمانيا كلّهم من أصل فرنسي كما هو الشأن خاصّة مع السيّدة كوزيما فاغنر: الصوت الأبعد شأنًا في مسائل الذوق من بين كلّ ما سمعت.

أن لا أقرأ باسكال، بل أحبّه كنموذج مفيد لمن ذهب ضحيّة للمسيحيّة بقتل نفسه جسديًا في البداية ثمّ روحيًّا في ما بعد: التجسيد الكامل للمنطق الذي يتأسّس عليه هذا الشكل المريع من الفظاعة اللاإنسانيّة؛ وأن أحمل في عقلي و-من يدري؟ - في جسدي أيضًا شيئًا من نزق مونتانيي؛ وأن يتولّى ذوقي كفنّان الدفاع، ليس دون شيء من الضراوة، عن أسماء مثل موليير وكورناي وراسين ضدّ عبقريّات جذباء من نوع شكسبير، فإنّ هذا كله لا يمنعني من أن أجد رفقة لطيفة ممتعة لدى المحدِثين أيضًا من

الأجيال الأخيرة للفرنسيّين. إنّني لا ألمح عبر مجمل التاريخ قرنًا آخر يمكن للمرء فيه أن يجمع برمية شبكة واحدة مثل هذا العدد من الخبيرين بالنفس البشريّة ذوي الحسّ المرهف والتوق الجامح إلى المعرفة مثلما يرى المرء في باريس الحاليّة. سأسمّي هنا على سبيل الذكر -ذلك أنّ عددهم ليس بالقليل- السادة بول بورجيه وبيار لوتي وجيب ومايلهاك وأناتول فرانس وجيل لي ماتر، ولكي أميّز واحدًا آخر من فصيلة الأفذاذ، أذكر ذلك اللاتينيّ بحقّ الذي أكنّ له تقديرًا خاصًّا وهو غي دي موباسّون. وإنّني لا أخفي عليكم أنّني أفضّل هذا الجيل حتّى على معلّميهم من الجيل السابق الذين أفسدتهم الفلسفة الألمانيّة (مسيو تاين مثلا الذي تأثّر بهيغل في سوء فهم كبارات الرجال والحقب التاريخيّة)؛ حيثما حلّ الألمان تكدّر صفو الثقافة. الحرب فقط هي التي خلّصت العقل في فرنسا..

ستاندال مثلا، وهو إحدى الصدف السعيدة في حياتي - كلّ ما يمثّل تحوّلا مهمّا في حياتي قد جاءني عن طريق الصّدفة لا عن توصية- ستاندال لا يقدّر بقيمة وذلك بسبب قدرته على استباق الأحداث بعيني الخبير النفسيّ، وفنّ القبض على الوقائع الذي يذكّر بالواقعيّ الأكبر (*ex ungue Napoleonem*)، وأخيرًا، وليست هذه أدنى خصاله، لكونه الملحد الصادق من تلك الفصيلة نادرة الوجود في فرنسا والتي لا يتوصّل إلى اكتشافها بسهولة - شكرًا وتقديرًا لبروسبير ميريمي!... لعلّي أيضًا «أحسد» ستاندال؟ فقد سبقني إلى أجمل نكتة إلحاديّة كان من الممكن أن أكون أنا قائلها: «إنّ العذر الوحيد للّه هو كونه غير موجود»... لقد قلت بدوري في موضع ما: ما هو أكبر اعتراض على الوجود إلى حدّ الآن؟ الله...

4

المفهوم الأرقى للشاعريّة جاءني عن طريق هاينريش هاينه، وإنّني (سأظلّ) أبحث عبثًا عبر مملكات الآلاف من السنين عن مثيل لهذه الموسيقى العذبة والمتوهّجة صبوةً في الآن ذاته. كان يمتلك تلك الشراسة الإلهيّة التي لا أستطيع أن أتمثّل الكمال من دونها - إنّي أقيس قيمة البشر والأجناس بحسب الربط الضروري الذي تقيمه بين الإله وجنّي الغابة - ثم تلك البراعة التي لديه في تطويع اللغة الألمانيّة! ذات يوم سيقال إنّني وهاينه كنّا الفنّانيْن الأوّليْن داخل اللغة الألمانيّة، وأنّ مسافة لا حصر لها تفصلنا عن كلّ ما قام به في هذا المجال أولئك الذين ليسوا سوى مجرّد ألمان. لا بدّ أنّ هناك قرابة عميقة تربطني بمانفريد بايرون: في داخلي وجدت تلك الأغوار السحيقة لروحه؛ وفي سن الثالثة عشرة كنت ناضجا لهذا الأثر. ولن أنفق كلمة واحدة بشأن أولئك الذين يجرؤون على التفوّه باسم فاوست ومانفريد في الوجود؛ وبالكاد سيحظون بنظرة خاطفة منّي. إن الألمان عاجزون عن تمثّل العظمة: الدليل على ذلك هو شومان! لقد عمدت بدافع الحنق على هذا السّاكسوني الليّن العذب إلى وضع مقدّمة موسيقيّة معاكسة لمسرحيّة مانفريد قال عنها هنس فون بيللّو إنّه لم ير من مثيل لها على ورق النوتة الموسيقيّة أبدًا؛ اغتصاب أويتيرب Euterpe(*) حسب تعبيره.

(*) Euterpe: إحدى بنات الإله زويس الثلاث حسب الأسطورة اليونانيّة الأصليّة، والتسعة حسب هزيود، ويمثّلن ملائكة الإلهام بالنسبة لمختلف الفنّانين؛ Euterpe هي «جنيّة»، أو ملهمة «البهجة» والعزف على الناي - (المترجم)

عندما أبحث عن أرقى عبارات التنويه للحديث عن شكسبير لا أجد دوما سوى هذا التعبير وهو أنّه أنجز صياغة النمط القيصري. مثل هذا النمط لا يمكن أن يكون من قبيل التصوّر؛ إمّا أن يكون موجودًا وإمّا أن لا يكون. والشاعر الكبير لا يبدع إلاّ من داخل واقعه إلى أن يبلغ ذلك الحدّ الذي يصبح فيه أثره فيما بعد غير محتمل بالنسبة له... كلما ألقيت نظرة على زرادشتي إلاّ وقضّيت نصف ساعة متمشّيًا جيئة وذهابًا داخل غرفتي دون أن أفلح في التحكّم في التشنّجات الشنيعة للغصص. وأنا لا أعرف قراءة مثيرة للوجع بالقدر الذي تثيره قراءة شكسبير: كم من الآلام ينبغي على المرء أن يكون قد تحمّل كي ما يغدو في حاجة إلى أن يجعل نفسه سخيفًا إلى هذا الحدّ! - هل نفهم هملت؟ لا ليس الشكّ، بل اليقين هو الذي يقود إلى الجنون... لكن لابدّ للمرء علاوة على ذلك أن يكون عميقًا وفيلسوفًا، أن يكون هوّة بعيدة الغور كيما يعرف ذلك الشعور... إننا جميعا نخاف من الحقيقة... وإنّي لأشهد هنا: إنّني واثق بمجرّد حدس غريزيّ بأنّ اللورد بايكون هو الحيوان المازوخي المبدع لهذا النوع الأدبي الفظيع؛ ثمّ ما لي والهراءات الجديرة بالشفقة للأدمغة الأميركيّة المسطّحة والمبلبلة! لكنّ الطاقة الضروريّة للرؤية الواقعيّة الهائلة لا تتلاءم فقط مع الطاقة الهائلة الدافعة للفعل، لفظاعة الفعل، الفعل الإجرامي؛ بل هي التي تستوجبها... إنّنا أبعد عن أن نكون عارفين بما فيه الكفاية باللورد بايكون، هذا الواقعيّ الأوّل بالمعنى التام للكلمة، كي نعرف كلّ ما فعل، وكلّ ما كان يريد، وما عاش مع نفسه من التجارب... إلى الشّيطان إذًا أيّها السّادة النقّاد! ولنفترض أنّني أمضيت على زرادشتي

باسم غريب، باسم ريشارد فاغنر مثلا، فإنّ حكمة ألفي سنة لن تكون كافية للتفطّن إلى أنّ صاحب «إنسانيّ، مفرط في الإنسانيّة» هو رائي زرادشت. . .

5

في هذا الموضع، وأنا أتكلّم عن فترات الاستراحة في حياتي، لا بدّ من كلمة للتعبير عن اعترافي بالجميل لذلك الذي وجدت معه راحة ذات عمق وودّ لا مثيل لهما على الإطلاق. كان ذلك دون أدنى شكّ ما عشته خلال علاقتي الحميميّة مع ريشارد فاغنر. سأتنازل بأبخس الأثمان عن بقيّة علاقاتي مع البشر الآخرين، لكنّني لن أقبل وبأيّ ثمن أن أمحي من حياتي تلك الأيّام التي قضّيتها بتريبشنْ، أيّام الثقة الخالصة والحبور والصدف القدسيّة؛ أيّام اللحظات العميقة. . . لا أدري ما الذي عاشه آخرون غيري مع فاغنر، أمّا نحن فإنّ سماءنا لم تكدّرها أيّة سحب.

مرّة أخرى أراني أعود إلى الحديث عن فرنسا وأنا أذكر فاغنر - ليس لديّ أيّ رأي ضدّ أولئك الفاغنريّين وكل ذلك *et hoc genus omne* - الرّهط من الناس الذين يعتقدون أنهم يغمرون فاغنر بالشرف إذا ما وجدوه شبيها بهم، ولن أقابلهم إلاّ بمجرّد ابتسامة احتقار طفيفة تتقوّس على زاوية الشفتين -. . . لقد شعرت لدى أوّل احتكاك لي بفاغنر، أنا الذي أشعر من أعماق غرائزي كلّها بالغربة تجاه كلّ ما هو ألماني إلى حدّ أنّ مجرّد القرب من أيّ ألماني يسبّب لي سوء هضم، أنّني أتنفّس بحريّة لأوّل مرّة في حياتي: أحسست

أنّني أقدّره كبلد أجنبيّ، كنقيض وكاعتراض حيويّ على كلّ «الفضائل الألمانيّة». - نحن الذين تنفّسنا أطفالا من هواء مستنقع الخمسينيات وغدونا بالضرورة ريبيّين تجاه فكرة الـ«ألماني»، ليس أمامنا سوى أن نكون ثوريّين، ولا يمكننا البتّة القبول بواقع حال يمسك فيه المرائي بزمام الأمور. لا يهمّني إن كان اليوم يُشهر ألوانًا جديدة، إن كان يرتدي القرمزيّ ويخطر في زيّ الفرسان... سواءٌ ذلك لديّ! ففاغنر كان ثوريًّا، وقد أولى ظهره للألمان... وكفنّان، ليس للمرء على أيّة حال من وطن في أوروبا كلّها غير باريس: رهافة الحواسّ الخمس كإحدى الشروط الضروريّة في الفنّ الفاغنري، الحسّ بالفوارق الدقيقة، والهشاشة النفسيّة، كلّها لا توجد إلاّ في باريس. ليس هناك من مكان آخر يمكن أن نلاقي فيه هذا الولع بكلّ ما يمتّ للشكل بصلة، وهذه الجديّة في الإخراج؛ إنّها الجديّة الباريسيّة بامتياز. لا أحد في ألمانيا بإمكانه أن يدرك الطموح الخياليّ الذي يسكن روح فنّان باريسيّ. الألمانيّ وديع؛ ولم يكن فاغنر وديعًا على الإطلاق... غير أنّني قد تكلّمت سابقًا بما فيه الكفاية («ما وراء الخير والشرّ» فقرة: 256) عن انتماء فاغنر وارتباطاته القرابيّة: إنّها الرومانسيّة الفرنسيّة المتأخّرة(*)؛ النوع المحلّق عاليا والمثير الأخّاذ من فنّانين على شاكلة دي لاكروا، وبرليوز، المنطوين على خلفيّة مرضيّة وعلّة في الكيان تستعصي على المداواة، مولعون حدّ التعصّب بالتعبيريّة مهرة بارعون بالتّمام... ومن ترى كان أوّل الأذكياء المنتصرين لفاغنر على الإطلاق؟ إنّه شارل بودلير، ذلك

(*) يقصد الكاتب هنا التأخّر الزمني بالنسبة للرومانسيّة الألمانيّة المتقدّمة.

الذي كان أوّل - ولعلّه كان أيضًا آخر من فهم دي لاكروا، المثال النمطيّ لـ المنحطّ الذي سيتعرّف جنس بأكمله من الفنّانين على أنفسهم فيه. . . إنّ ما لم أغفره أبدًا لفاغنر هو ارتداده إلى الحظيرة الألمانيّة؛ أي أنّه تحوّل إلى ألماني الإمبراطوريّة. . . حيثما حلّت ألمانيا داخَل الثقافةَ الفسادُ.

6

وخلاصة القول، إنّه ما كان لي أن أقدر على تحمّل سنيّ شبابي من دون الموسيقى الفاغنريّة، فقد كان محكومًا عليّ بالألمان. وعندما يريد المرء أن يتخلّص من عبء ضغط شديد يكون بحاجة إلى الحشيش. ولقد كنت بحاجة إلى فاغنر. فاغنر هو السمّ المضادّ لكلّ ما هو ألمانيّ *par excellence* بامتياز -إنّه سمّ؛ ذلك ما لا أنكره. . .

ابتداء من اللحظة التي وُجدت فيها تقاسيم البيانو لملحمة تريستان -كلّ تقديري أيها السيّد فون بيلّلو!- أصبحت فاغنريًا. أمّا الأعمال الفاغنريّة السابقة كلّها فكانت تبدو لي دون مستواي؛ فجّة جدًّا، «ألمانيّة» جدًّا. . . وإنّني إلى حدّ اليوم ما زلت أبحث عن أثر آخر بإمكانه أن يعادل تريستان في تلك الفتنة الخطيرة وذلك الطابع اللامتناهي العذب والمخيف؛ عبثا ما زلت أبحث في كلّ أصناف الفنّ! إنّ كلّ غرابات ليوناردو دي فينشي تفقد سحريّتها لدى الإستماع إلى أولى نغمات تريستان. ذلك العمل هو الـ *non plus ultra* - القمّة التي لا شيء بعدها بالنسبة لفاغنر؛ وليست «المبتزّ» و«الخاتم» سوى قطع لمجرّد الاستراحة بعد تريستان لا غير. إنّ

المعافاة تعدّ ضربًا من الانتكاس بالنسبة لكائن من طبيعة فاغنر. . . وإنّني لأعتبر ذلك حظًّا من الدرجة الأولى أن يكون المرء قد عاش في الوقت المناسب، وبالذات بين الألمان كي يصبح ناضجًا لعمل من نوع تريستان؛ إلى هذا الحدّ يذهب بي فضول الخبير النفسانيّ. فالعالم يبدو فقيرًا جدًّا بالنسبة لأولئك الذين لم يبلغوا حدًّا كافيًا من المرض كي يتذوّقوا «متعة الجحيم»: إنّه من المباح هنا، بل من المتوجّب تقريبًا استعمال هذا التعبير الصوفيّ. أظنّني أعرف أكثر من أيّ أحد تلك الأشياء الرهيبة التي يقدر عليها فاغنر وتلك العوالم المتعددة الفسيحة من النشوات الغريبة التي لا يملك أحد غيره أن يحلّق في سمائها، وبما أنني على قدر كاف من القوّة يجعلني قادرًا على تحويل الأمور الأكثر إشكالا والأكثر خطرًا إلى منافع، وعلى أن أغدو بفضلها أكثر قوّة، فإنّني أسمّي فاغنر إذًا صاحب الفضل الأكبر ووليّ نعمة حياتي. إنّ ما يكوّن القرابة التي تجمعنا هو كوننا تألّمنا بعمق ،ومن بعضنا أيضًا، كما لا يستطيع إنسان من هذا القرن أن يتألم، وذلك هو ما سيجعل اسمينا يقترنان ويعودان إلى الاقتران إلى الأبد. وكما أنّه من الواضح أن فاغنر مجرّد حالة سوء فهم بين الألمان، فإنّني بدوري كذلك، وكذلك سأظلّ على الدّوام. لا بدّ لكم قبل كلّ شيء مِن قرنين من الانضباط النفسيّ والفنّيّ، أيّها السادة الجرمان!. . . غير أنّه لا يمكن تدارك مثل هذه الأشياء .-

7

كلمة أخرى أريد أن أقولها للصفوة من المستمعين، وذلك بخصوص ما الذي أريده من الموسيقى. إنّني أريدها بهيجة وعميقة

مثل عشيّة يوم من أيّام أكتوبر. أن تكون فريدة من نوعها، جذلى ورقيقة، أنثى صغيرة وحلوة في عهرها وملاحتها... لن أقبل أبدا بفكرة أنّ ألمانيًا بمستطاعه أن يعرف ما هي الموسيقى. وأولئك الذين يدعونهم الناس بالموسيقيّين الألمان؛ الكبار منهم بالخصوص، هم من الأجانب؛ سلافيّون، كرواتيّون ،إيطاليّون، هولانديّون - أو يهود، وفي حالات أخرى ألمان من الجنس العتيد الذي اضمحلّ، ألمان من أمثال هاينرش شوتز، وباخ وهانْدلْ. وأنا بدوري ما زلت بولنديًا بما فيه الكفاية كيما أعرض من أجل شوبان عن بقيّة الموسيقى بكلّيتها مستثنيًا، لثلاثة أسباب، - *Sigfried-Idyll* أنشودة سيغفريد لفاغنر، ومن المحتمل أيضًا بعض الأشياء لليسزت Liszt الذي يتجاوز كلّ الموسيقيّين بنبرة الأوركسترا النبيلة، وأخيرًا كلّ ما ترعرع في ما وراء الألب. في هذه الناحية لا يمكنني أن أتخلّى عن روسّيني وأقل من ذلك عن ذلك الذي يمثّل جنوبي الموسيقي، موسيقى معلّمي البندقي بييترو كاستي. عندما أتكلّم عن ماوراء الألب فأنا أعني البندقيّة. وعندما أبحث عن اسم آخر للموسيقى فإنّني لا أجد دومًا سوى اسم البندقيّة. إنّني لا أعرف كيف أميّز بين الموسيقى والدّموع؛ أعرف السعادة المتمثّلة في كوني لا أستطيع التفكير في الجنوب دون أن تتخلّلني قشعريرة الذّعر.

واقف إلى الجسر
في المساء الملتحف بالظلال.
من البعيد تتناهى أغنية إليّ؛
قطرات ذهبيّة تنساب

فوق السطح المرتعش للماء.
جناديل، أضواء وموسيقى
سكرى تسبح باتّجاه الغروب...

روحي صوت كمان
يعزف لنفسه في تأثّر خفيّ،
في السرّ يغنّي أنشودة جندوليٍّ،
مرتعشة بغبطة زاهية الألوان.
- هل استمع إليها أحد؟

8

في كلّ هذه الأمور: اختيار الغذاء والمكان والمناخ وما يتعلّق بالاستراحة فإنّ غريزة البقاء التي تعبّر عن نفسها بصفة لا يشوبها أي غموض كغريزة دفاع عن النفس هي التي تقود. أن يغضّ المرء الطرف عن الكثير من الأشياء، أن لا يستمع إليها، ولا يدعها تقترب منه؛ تلك هي أولى مقتضيات الذكاء، والبرهان الأوّل على أنّ الكائن ليس محض صدفة، بل ضرورة. الكلمة المتداولة في التعبير عن هذه الغريزة الدفاعيّة هي الذّوق. وتعاليمها لا تفترض فقط أن يقول المرء لا، حيث يمكن لكلمة نعم أن تغدو ضربًا من «نكران الذات»، بل أن يسعى أيضًا قدر الإمكان إلى تفادي قول لا. أن ينفصل ويتخلّى عن كلّ ما يجعل كلمة لا ضروريّة على الدّوام. والحكمة في ذلك تتمثّل في أنّ توظيف الطاقات الدفاعيّة، مهما كان القدر

محدودًا وضئيلا، إذا ما غدا نمطا وتحوّل إلى عادة، يتسبّب في استنفاد للذّات هائل وعديم الجدوى كليًا. فنفقاتنا الكبرى متأتّية من تراكم النفقات الصغيرة. والدفاع عن النفس والتصدّي لكلّ ما يحاول الاقتراب نفقةٌ - لنحترس من المغالطة في هذا المجال!- وتبديدٌ للطاقات من أجل غاية سلبيّة. وإنّ حالة الاستنفار والحاجة الدائمة للدفاع قد تضعف المرء بكيفيّة يغدو معها غير قادر عن الدفاع بالمرّة.

لنفترض أنّني أخرج من بيتي، وعوضًا عن مدينة تورينو الهادئة الأرستقراطيّة أجد أمامي مدينة ألمانيّة صغيرة: ستُضطر غريزتي عندها إلى الانغلاق لتدفع عنها ما يدهمُها من ذلك العالم المسطّح والجبان. أو لنقل أنّني أجد أمامي المدينة الألمانيّة الكبرى، تلك الرذيلة المجسّدة في البناء حيث لا ينمو أيّ شيء، وحيث كلّ شيء، جميلاً وقبيحًا، مستورد دخيل؛ ألا أجد نفسي مضطرًا للتحوّل إلى قنفذ؟ لكن التسلّح بالإبر تبذير، بل ترف مبالغ فيه عندما يكون من حقّنا أن نستغني عن الإبر، وأن نتقدّم بيد مفتوحة.

حكمة أخرى وضرب آخر من حماية الذات تتمثّل في أن يتلافى المرء قدر الإمكان ردّ الفعل، وأن ينسحب من كلّ الوضعيّات والعلاقات التي تجعله مضطرًا إلى تعليق «حرّيته» ومبادرته الشخصيّة ليتحوّل إلى مجرّد آلة ردّ فعل. وسآخذ كمثال لذلك علاقتنا بالكتب. إنّ رجل العلم الذي لا يقوم على العموم سوى بـ«تقليب» الكتب - عمليّة ترتفع لدى الفيلولوجي من النوع المتوسّط إلى عدد الـ 200 يوميًا - يفتقد مع الوقت القدرة على التفكير بصفة مستقلّة. وإذا لم يقلّب فإنّه لا يفكّر. إنّه يستجيب لمثير عندما يفكّر؛ أي أنّه

يردّ فعلاً، ليس إلاّ. إنّ العالم ينفق كليّة طاقاته في مقولات الـ «نعم» و«لا» ضمن نقد ما فكّر فيه غيره؛ أمّا هو فإنّه لم يعد يفكّر. . . فقد ضعفت غريزة الدفاع لديه وإلاّ لكان بإمكانه التحصّن من الكتب. رجل العلم كائن منحط. لقد رأيت ذلك بعينيّ: كم من الأشخاص الموهوبين، ذوي مؤهّلات ثريّة وتكوينة حرّة قد دمّرتهم القراءة فغدوا وهم في الثلاثينيات من عمرهم عبارة عن مجرّد أعواد ثقاب لا بدّ من فركها كيما تحدث شررًا؛ تنطق «بفكرة». أن يقرأ المرء كتابًا، في الصباح الباكر، عند طلوع النهار، في لحظة الطراوة والتوهّج الصباحيّ لطاقاته! ذلك ما أسمّيه فسادًا ورذيلة! –

9

لم يعد ممكنا الآن وقد بلغنا هذا الموضع من الحديث أن أتلافى الإدلاء بالإجابة الحقيقيّة عن سؤال: **كيف يصبح المرء ما هو؟** وبهذا أكون قد لامست الجانب الإبداعيّ الرائع في فنّ حفظ الذّات – فنّ إيثار النفس. . . وإذا ما افترضنا بالتالي أنّ المهمّة والشرط المحدّد وقدَر المهمّة تتجاوز بكثير متوسّط المستوى المتداول، فإنّ الخطر كلّ الخطر يكمن في أن يتعرّف المرء على نفسه في النظر إلى تلك المهمّة تلك المهمّة. أن يصبح المرء ماهو يفترض أن لا يكون لديه أدنى دراية بـما هو. من وجهة النظر هذه تغدو حتّى الأعمال غير الصائبة التي تحدث في الحياة ذات معنى وقيمة، وكذلك السبل الجانبيّة والسبل الخاطئة التي يسلكها المرء لفترة من الزّمن، ووقفات التردّد والركون إلى الأوضاع «المتواضعة» والجهود الجديّة التي تنفق في مهمّات مجانبة للمهمّة الحقيقيّة. ههنا

تتجلّى حكمة كبرى، بل الحكمة الكبرى ألا وهي: حيث تكون مقولة *nosce te ipsum* – **اعرف نفسك بنفسك** الوصفة المثلى للتدهور، فإنّ نسيان الذّات، **وسوء فهم الذّات**، وتحقير الذّات، والتحوّل إلى كائن ضيّق الأفق ورديء، تغدو عين الحكمة. وبتعبير أخلاقيّ، فإنّ حبّ ذوي القربى، والعيش من أجل خدمة الآخرين ولخدمة قضايا أخرى قد تصبح إجراءات حمائيّة من أجل حفظ العلاقة الأوطد بالذات. إنّها الحالة الإستثنائيّة الوحيدة التي أنتصر فيها، خلافًا للقاعدة ولقناعتي، إلى الغرائز «الغيرانيّة»: إنها هنا تخدم إيثار النفس، وتربية النفس. – على المرء أن يحافظ على سلامة الوجه السطحيّ للوعي بكلّيته–لأنّ الوعي سطح– وحمايته من تدخّل أيّ من ضرورات الوجوب الكبرى. ولنحذر كذلك من الكلمات الكبيرة، ومن كلّ المواقف الكبرى. الخطر كلّ الخطر هو أن «تعي» غريزةٌ «ذاتها» قبل الأوان. – في الأثناء ما تنفكّ «الفكرة» المنظّمة، المدعوّة للسيطرة تنمو وتنمو في الأعماق؛ تشرع في إعطاء الأوامر، تعيد السائرين على السبل الجانبيّة وعلى سبل الضّلال، وتهيّيءُ بعض الخصال والكفاءات المنفردة التي ستَبرز ذات يوم مثل عناصر لا غنى عنها في خدمة الغاية الكليّة. إنّها تهيّيءُ القدرات الخادمة الواحدة تلو الأخرى وذلك قبل أن تعلن عن شيء من المسعى الهيمني، عن أيّ «هدف»، عن أيّة «غاية» أو «معنى». من هذه الزاوية فإنّ حياتي تعدّ ببساطة شيئًا رائعًا. فمن أجل تحقيق مهمّة قلب القيم كان لا بدّ على ما أظنّ من توفّر قدرات تفوق بكثير ما كان بالإمكان أن يجتمع لدى شخص واحد، وبصفة أخصّ كان لا بدّ من توفّر قدرات متناقضة في ما بينها، لكن دون أن يكون لها أن تُدخل الضّيم على بعضها وأن

تدمّر بعضها البعض. ترتيب القدرات بحسب الأولويّة والأهميّة، اتّخاذ مسافة، فنّ التفرقة دون إحداث بلبلة، عدم الخلط، وعدم «مصالحة» أيّ شيء مع آخر؛ تعدّديّة هائلة ومع ذلك نقيضٌ لكلّ ما يمكن أن يكون فوضى: تلك كانت الشروط الأوّليّة، أي العمل السريّ الطويل والإبداعي لغريزتي. ولقد تجسّدت المناعة القصوى لهذه الغريزة بصفة عميقة بحيث لم أتفطّن البتّة ولا راودني أيّ شكّ في ما كان ينمو في داخلي حتّى انفجرت كل تلك الطاقات فجأة وقد بلغت نضجها وأوج اكتمالها. ولا أذكر أنّني أجهدت نفسي من أجل شيء ما؛ وليس هنالك من أثر لصراع ما في حياتي فأنا نقيض لكلّ ما يحمل طابعًا بطوليًا، كما لا أعرف عن تجربةٍ ما الذي تعنيه أشياء مثل «إرادة» شيء ما، والتعلّق بـ«هدف» أو بـ«رغبة» ما. وإنّني حتى هذه اللحظة أجول بنظري في مستقبلي - مستقبل رحب - كالناظر إلى بحر ساكن: لا رغبة ترسم تموّجاتها على سطحه. لا أرغب البتّة في أن تكون الأشياء على غير ما هي عليه، كما لا أريد أن أكون غير ما أنا الآن... غير أنّني هكذا عشت دومًا؛ لم تكن لديّ أيّ رغبة في شيء ما. أن يكون بإمكان واحد قد تجاوز الأربع والأربعين سنة من العمر أن يقول إنّه لم يكلّف نفسه عناء الجري وراء المجد، أو النساء، أو المال!- ولا يعني هذا أنّ شيئًا منها قد نقصني. هكذا صرت على سبيل المثال أستاذًا جامعيًا ذات يوم، ولم يكن قد خطر على بالي البتّة مثل ذلك الأمر، فأنا بالكاد قد بلغت سنّ الرابعة والعشرين آنذاك. كذلك صرت قبلها بسنتين فيلولوجيًا، ذلك أنّ أستاذي ريتشل قد طلب منّي آنذاك أن أسلّمه عملي الفيلولوجيّ الأوّل، بدايتي على جميع المستويات، من أجل طباعته لفائدة

«متحف الراين» (ريتشل - أقول ذلك بكلّ تقدير- كان المثقّف العبقريّ الوحيد الذي عرفته إلى حدّ الآن. كان يمتلك ذلك النوع من الفساد الذي يميّزنا نحن أهل تورينغن والذي يجعل حتّى من ألمانيٍّ شخصًا لطيفًا. كلانا يحبّذ اللجوء إلى الطرق الملتوية حتّى من أجل بلوغ الحقيقة. غير أنّني لا أودّ من خلال هذه الكلمات التقليل بأيّ حال من شأن ابن بلدي الأقرب إليّ ليوبولد فون رانكه الذكيّ.)

10

قد يسألني سائل لِم هذا الكلام عن هذه الأشياء الصغيرة والتافهة حسب الأحكام المتعارفة، وسيقال لي إنّني لا أفعل بهذا سوى الإساءة إلى نفسي، خاصّة والحال أنني مؤهّل حسب رأيهم للإنخراط في مهمّات كبرى. جوابي هو: إنّ هذه الأشياء الصغيرة من غذاء وأمكنة ومناخ واستجمام؛ أي مجمل دقائق الولع بالذّات، لهي في كلّ الأحوال أهمّ من كلّ ما ظلّ إلى حدّ الآن يؤخذ على أنّه مهم. من هنا بالذّات ينبغي أن يبدأ المرء بـإعادة التعلّم. إذ أنّ كلّ الأشياء التي ظلّت البشريّة تثمّنها إلى حدّ الآن ليست حتّى بالأمور الواقعيّة، بل خيالات ومجرّد أوهام وبعبارة أكثر شدّة أكاذيب طالعة من عمق الغرائز السيّئة لطبائع مريضة ومضرّة بالمعنى العميق للكلمة؛ كلّ هذه المفاهيم من شاكلة «الله»، و«الروح»، و«الفضيلة»، و«الخطيئة»، و«الماوراء»، و«الحقيقة»، و«الحياة الخالدة»... غير أنّه داخل هذه المفاهيم ظلّ يجري البحث عن عظمة شأن الطبيعة الإنسانيّة و«طابعها القدسيّ»... هكذا تمّ تزوير كلّ مسائل السياسة والنظام الإجتماعي والتربية من الأساس بحيث تمّ

تكريس أشدّ الناس ضررًا كعظماء، وتعلّم الناس إبداء الإحتقار تجاه الأشياء «الصغيرة»، أريد أن أقول الشؤون الجوهريّة للحياة. . . {إنّ ثقافتنا الحاليّة على قدر أقصى من الغموض . . . قيصر ألمانيا وهو يتحالف مع البابا، كما لو أنّ هذا البابا لم يكن الممثّل الأمثل للمعاداة اللدود ضدّ الحياة. . ! ما يتمّ بناؤه اليوم سيكون قد اضمحلّ بعد ثلاث سنوات. وإذا ما قست نفسي بما أنا قادر عليه، بغضّ النظر عمّا سيحدث بعدي من انهيار وإعادة بناء لا مثيل لها، فإنّه سيحقّ لي أكثر من أيّ كان التطلّع إلى لقب العظمة.}(*) وإذا ما قارنت نفسي بهؤلاء الذين تمّ تكريسهم إلى حدّ الآن كأناس **عظماء**، فإنّ الفارق بيني وبينهم يتجلّى واضحًا وملموسًا. إنّني لا أحسب هؤلاء «العظماء» المزعومين حتّى في عداد البشر؛ فهم في نظري سقط المتاع ونفايات البشريّة، ونتاج للمرض وغرائز الانتقام: إنهم كائنات فظيعة مضرّة وغير قابلة في جوهرها للعلاج، غايتها الانتقام من الحياة.

(*) هذه الفقرة مفقودة في جلّ النسخ المتداولة، وتظهر في النصّ الأصلي مشطوبة لكن من طرف يد أجنبيّة عن نيتشه، وقد أثبتتها النسخة التي كانت بحوزة بيتر غاست، ثمّ أوردها كلّ من راؤول ريشتر (1908) وأوتو فايس (1911) في جملة التعليقات الملحقة بنسختيهما، لكنّ كارل شليشتا تجاهل وجودها إلى أن أوردها بوداخ في نسخة 1961. في هذه الفقرة إشارة إلى الزيارة التي قام بها القيصر فيلهلم الثاني إلى البابا ليو الثالث عشر بروما خلال شهر سبتمبر 1888. وقد برّرت إليزابيت فوستر نيتشه في رسالة إلى أوفرباك (عالم اللاهوت السويسري الذي كانت تربطه بنيتشه علاقة وطيدة ومراسلات عديدة) مجمل التغييرات التي أجرتها على النصّ بذريعة الإساءة -تحت تأثير المرض، أو بصفة أدق الجنون المكتمل- إلى الأصدقاء والعائلة والبابا وقيصر ألمانيا، وارتأت آنه من حقّها أن تزيل كلّ آثار هذه الإساءات.

أريد أن أكون نقيض هذا النوع: امتيازي هو الحساسيّة القصوى التي لديّ تجاه كلّ أعراض الغرائز السليمة. وإنّني خال من كلّ ظواهر المرض، وحتّى في أوقات اعتلالي الشديد لم أغد كائنا مريضًا؛ عبثًا سيحاول أيّ كان أن يستشفّ لديّ أيّ أثر للتعصّب. كما لن يعثر المرء لديّ في أية فترة من حياتي شيئًا من هيآت الغرور أو الإنتفاخ الحماسيّ. إنّ التفخيم الذي يضفَى على الهيأة لا ينتمي بحال إلى العظمة. ومن كان بحاجة إلى اتّخاذ هيأة ما فهو مزيّف... احذروا كلّ ذي تزويق وتقعّر!-

لقد غدت الحياة رائقة بالنسبة لي - أروق ما يكون عندما تطالبني بأشدّ الأمور وأصعبها. ومن رآني خلال السبعين يومًا من الخريف الأخير حيث كنت أشتغل بدون انقطاع على مسائل ذات أهميّة من الدرجة الأولى؛ مسائل ذات مسؤوليّة تجاه آلاف السنين القادمة، وليس لأحد أن يقلّدها أو أن يلقّنني إيّاها - من رآني آنذاك ما كان له أن يستشفّ لديّ أيّة من علامات التوتّر، بل دفقًا من البهجة والطراوة. لم أعرف وقتا آخر أكلت فيه بمثل تلك المتعة، ولا عرفت نومًا أفضل. إنني لا أعرف في ممارستي للمهمّات الصعبة من طريقة أخرى غير اللعب: إنّه علامة العظمة وشرطها الأساسيّ. إنّ أقلّ تكلّف، والسّحنة المتجهّمة، وأيّة نبرة شديدة في الحلق، كلّها مآخذ ترفع ضد الشخص، وبصفة أكبر ضدّ أثره! لا يحقّ للمرء هنا أن يكون ذا أعصاب... المعاناة من الوحدة هي أيضًا من المآخذ؛ لم أعان على الدوام إلاّ من «الكثرة». لقد أدركت في سنّ مبكّرة جدًّا وأنا في السابعة من عمري أن ليس هنالك من كلام بشريّ بإمكانه أن ينفذ إليّ: فهل لاحظ أحد عليّ تعكّرًا بسبب ذلك؟ وإلى

اليوم ما زلت أحمل نفس اللطف تجاه الآخرين، بل إنّني أكنّ كل التقدير حتّى إلى أقلّ الناس منزلة؛ ليس ثمّة في هذا كلّه ذرّة من التكبّر، أو من احتقار مقنّع. عندما أحتقر شخصًا ما فإنّه يدرك بمجرّد حدس أنّني أحتقره: بمجرّد حضوري فقط أزعج كلّ من كان يجري في عروقه دم فاسد...

إنّ صيغتي المبجّلة للتعبير عن العظمة لدى الإنسان هي *amor fati* - حبّ القدر -: أن لا يطلب المرء شيئًا آخر غير ما هو كائن(*)، لا في ما مضى، ولا في ما سيأتي، أبدًا على الإطلاق. لا ينبغي على المرء أن يتحمّل الضّرورة على مضض، وأقلّ من ذلك أن يكتمها ويتستّر عليها - إذ المثاليّة بكليتّها موقف كاذب حيال الضرورة-، بل أن يحبّها...

(*) أنظر مقولة «الاستسلام الروسي» الواردة في فصل سابق.

ما الذي يجعلني اكتب كتباً جيّدة

1

أنا شيء وكتاباتي شيء آخر. وقبل أن أتكلّم عن كتبي لا بدّ من كلمة هنا عن مسألة فهم أو عدم فهم كتاباتي. سأفعل ذلك بما يناسب الأمر من عدم اكتراث؟، ذلك أنّ هذه المسألة ما تزال سابقة لأوانها كلّيًا. وأنا بدوري سابق لأواني؛ هنالك أناس يولدون بعد الممات posthume. - سيأتي يوم يغدو فيه ضروريًا تكوين مؤسّسات يعيش الناس داخلها ويعلّمون طبقًا لمفهومي للعيش والتعليم؛ وقد تؤسس أيضًا كراسي جامعيّة لتأويل زرادشت. غير أنني سأكون متناقضًا مع نفسي تمام التناقض إذا ما طمعت اليوم في وجود آذان وأيادٍ لحقائقي؛ أن لا يُستمع إليّ اليوم، وأن لا يكون هناك من يرغب في الأخذ عنّي فذلك ما يبدو لي لا أمرًا مفهومًا فحسب، بل عين التصرّف السليم.

وكما أنني لا أريد أن يقع الخلط بيني وبين أحد آخر، فإنّه من المفترض ،طبقًا لذلك أن لا أقع بدوري في هذا الخلط.

لأكرّر مرّة أخرى بأنّي لم أتعرّض خلال حياتي كلّها إلاّ نادرًا إلى «نوايا سيّئة»، كما لا أكاد أذكر أيّة حالة لـ«نوايا الإساءة» الأدبيّة تجاهي. وبالمقابل الكثير من الحمق الصرف!.. يبدو لي أنّه من صيغ التكريم النادر جدًّا الذي يمكن أن يحبو امرؤ به نفسه أن يمسك بيده بأحد كتبي؛ بل إنّني أتصوّره يخلع نعله أيضًا وهو يفعل ذلك - وما بالك بالحذاء العسكريّ!... وعندما عبّر لي الدكتور هاينرش فون شتاين ذات يوم عن تذمّره الصادق من أنّه لم يفهم كلمة واحدة من زرادشتي، أجبته بأن لا بأس في ذلك: أن يكون الواحد قد فهم ستّ جمل من زرادشت؛ بمعنى أن يكون قد عاشها، فإنّ ذلك سيرفعه إلى مقام فوق منزلة الفانين ليس بإمكان «إنسان حديث» أن يرتقي إليه. كيف يمكنني إذًا، مع هذا الحسّ بالمسافة أن أطمع في أن أُقرأ من قبل هؤلاء «الحديثين» الذين أعرفهم! إنّ ظفري هو بالضبط عكس ذلك الذي حصل لشوبنهاور؛ فأنا أقول: «non legor, non legar» - لا أقرأ، ولا ينبغي أن أُقرأ -.

لا يعني هذا أنّني أريد التقليل من قيمة تلك المتعة التي وجدتها العديد من المرّات في الرفض البريء لكتاباتي. في هذه الصائفة مثلا، وفي الوقت الذي كنت مهيّأً فيه لزعزعة توازن مجمل الكتابة الأدبيّة بكتاباتي الصّارمة، صرامة نازلة بثقل لامتناه، أشار لي أستاذ من جامعة برلين بكلّ مودّة بأنّه من الأفضل لي لو أتوخّى نوعًا آخر من الكتابة؛ إذ لا أحد يقرأ هذا الذي أكتبه. وفي النهاية ليست ألمانيا، بل سويسرا هي التي أفرزت حالتين من ردود الفعل على طرفي نقيض. إنّ مقالا حول «في ما وراء الخير والشرّ» للدكتور ف. فيدمان في صحيفة الـ *Bund* ببارن تحت عنوان «الكتاب الأكثر

خطرًا لنيتشه»، وجردًا كاملا لكلّ كتاباتي بقلم السيّد كارل شبيتلر بالـ *Bund* أيضًا، قد مثّلا حدًّا أقصى في حياتي؛ وسأمتنع عن توضيح أيّ حدّ من أيّ شيء... لقد تناول الكاتب الأخير زرادشتي على أنّه «تمرين أسلوبي راقٍ» متمنّيا أن أولي في المستقبل اهتمامًا بالمحتوى أيضًا. أمّا الدكتور فيدمان فقد عبّر لي عن تقديره للشجاعة التي أعمد بها جاهدًا إلى إلغاء كلّ المشاعر العفيفة. وبمحض صدفة، أو حيلة ماكرة للصدف قد جاءت كلّ جملة من هذا النصّ، وبدقّة منطقيّة نالت كل إعجابي، في هيأة حقيقة مقلوبة على رأسها: يكفي بالنهاية أن يقع «قلب كلّ القيم» كي يُتَوَصّل، وبطريقة تستحقّ الإعجاب، إلى إصابة الهدف منّي عوضًا عن إصابتي كهدف... إنّه سبب إضافيّ آخر كي أحاول تفسيرًا للأمر.

ليس بإمكان أحد بالنهاية أن يسمع من الأشياء، بما في ذلك الكتب، أكثر ممّا يعرف مسبقًا. فما لم يكن للمرء من معرفة به عن تجربة معاشة، لا يمكن له أن يسمعه. لنتصوّر الآن حالة قصوى حيث يروي كتاب أحداثًا تقع خارج الإمكانات التي تمنحها التجارب المتداولة، بل وحتّى النادرة منها، بحيث يغدو لغة أولى لسلسلة جديدة من التجارب. في مثل هذه الحالة سيكون من المتعذّر سماع أيّ شيء، وبفعل التوهّم السمعيّ يغدو ما هو غير مسموع غير موجود أيضًا. تلك هي تجربتي العامّة و، إذا ما أردنا، **الأصالة** التي تميّز تجربتي. كلّ من يعتقد أنّه فهم شيئًا من كتاباتي فقد فهم منّي ما فهم طبقًا لصورته الخاصّة، وفي أغلب الأحيان شيئًا مناقضًا لي تمامًا مثل اعتباري «مثاليًا». أمّا من لم يفهم منّي أيّ شيء فقد أنكر حتّى مجرّد أن أدخل في الحسبان.

إنّ عبارة «الإنسان الأرقى»، كصيغة للتعبير عن نموذج الاكتمال الأعلى، أي كنقيض للإنسان «الحديث»، والإنسان «الخيِّر»، وللمسيحيّين وغيرهم من العدميّين - العبارة التي تتّخذ على لسان زرادشت مدمّر الأخلاق، معنى يدعو إلى التفكير- نراها تفهم في كلّ مكان تقريبًا وببراءة تامّة طبقًا للقيم التي تتناقض كليًّا وتلك التي جاء ينادي بها زرادشت: أعني بذلك كنموذج «مثاليّ» لنوع راق من البشر؛ نصف «قدّيس» ونصف «عبقريّ». وقد بلغ الأمر ببعض الدّواب العالمة من ذوات القرون أن تتّهمني بالداروينيّة بسبب هذه العبارة. بل هناك من ظنّ أنّه قد استشفّ فيها حتّى «عبادة الأبطال» على النحو الذي يدعو إليه ذلك المزوِّر الجاهل وعديم الإرادة كارليل(*) (أنظر رسائل رينان)، تلك العبادة التي كنت قد رفضتها بشدّة. وحتّى ذلك الذي همست في أذنه ذات يوم إنّه من الأجدر به أن يتّجه إلى قيصر بورخيا(**) من أن يولي اهتمامًا ببارسيفال، فإنّه لم يستطع أن يصدّق أذنيه(***).

لا بدّ أن يُغفر لي أنّني لا أُبدي أيّ اهتمام بالقراءات النقديّة حول كتاباتي، وبخاصّة تلك التي ترد في الصحف. أصدقائي وناشرو مؤلّفاتي يعرفون ذلك ولا أحد يذكر لي هذا الأمر. في حالة

(*) توماس كارليل (1795-1881) كاتب ومؤرّخ أنكليزي من المنادين، تحت تأثير المثاليّة الألمانيّة، لمحاربة «الانحطاط» الثقافي لعصره. (المترجم)

(**) Cesar Borgia (1475-1507) من عائلة نبلاء إسبان غدت ذات نفوذ في إيطاليا منذ القرن الخامس عشر. رئيس الأساقفة بفالنسيا (1493)، ثمّ مطران (1493-1498)، دوق رومانيا (شمال إيطاليا: 1501). scrupellose Renaissance Fuerst

(***) يبدو أن المعني بالكلام هنا هو ريشارد فاغنر، ذلك أنّه هو مؤلّف أوبرا بارسيفال. (المترجم)

استثنائيّة واحدة حدث لي أن وجدت أمام عينيّ، دفعة واحدة، كلّ ما اقترف من خطايا في حقّ واحد من كتبي؛ ألا وهو «في ما وراء الخير والشرّ»؛ ولو شئت لكان بإمكاني أن أحرّر مقالة لطيفة جدًّا في هذا الموضوع. هل يمكن أن نصدّق أنّ صحيفة "Die Nationalzeitung" (وهي صحيفة بروسيّة؛ أقول هذا لقرّائي الأجانب، فأنا بدوري لا أقرأ - بعد إذنكم - سوى le journal des débats) ستذهب إلى حدّ تأويل كتابي على أنّه من «علامات الزمان»(*)، وفلسفة نبلاء محاربين حقيقيّة، أمر لم تجد له صحيفة الصليب "Die Kreuzzeitung" ما يكفي من الجرأة؟...

2

هذا الذي قلته لا يعني سوى الألمان، إذ ليَ في كلّ مكان عدا ألمانيا قرّاء من صفوة الأذكياء؛ شخصيّات قد أثبتت كفاءتها وتمرّست في المواقع والمهامّ الرفيعة؛ هناك حتّى عباقرة حقيقيّون من بين قرّائي. في فيينّا، وسان بيترسبورغ، وستوكهولم، وكوبنهاغن، وباريس ونيويورك؛ في كلّ مكان وقع اكتشافي، لكنّ ذلك لم يحصل في البلاد المسطّحة من أوروبا: ألمانيا... وإنّي لأعترف بأنّني أكثر امتنانًا لوجود أولئك الذين لم يقرؤوني؛ أولئك الذين لم يسمعوا البتّة بإسمي ولا بعبارة فلسفة. غير أنّني حيثما حللت، هنا

(*) إحالة على الكتابة الإنجيليّة، كما يفعل نيتشه في العديد من المواضع؛ أنظر «متّى»(16-3) -المترجم-

في تورينو مثلا، يتهلّل وينبسط لرؤيتي كلّ وجه. وإنّ أكبر علامات الإطراء ممّا راقني إلى حدّ اليوم هو أنّ البائعات العجائز لا يهدأ لهنّ بال إلاّ بعد أن ينتقين لي ألذّ ما لديهنّ من العنب. إلى هذا الحدّ على المرء أن يكون فيلسوفًا... ليس جزافا أن يسمّى البولونيّون بفرنسيّي السّلافيّين. وإنّ أيّة روسيّة لطيفة لن تخطئ لحظة واحدة في تخمين أصل هويّتي. فأنا لا أُفلح البتّة في أن أغدو ذا أبّهة، بل أقصى ما يمكنني أن أبلغه هو أن أبدو مرتبكًا.

إنّني قادر على كلّ شيء، أمّا أن أفكّر كألمانيّ وأشعر كألمانيّ فذلك ما يتجاوز طاقاتي... وقد بلغ الأمر بأستاذي الشيخ ريتشل أن يعتبر أنّني أحرّر مقالاتي الفيلولوجيّة مثل روائيّ باريسيّ؛ بطريقة أخّاذة مشوّقة حدّ العبث. في باريس ذاتها يندهش الناس لجرأتي وكياستي الكليّة *toutes ,mes audaces et mes finesses* – والعبارة لمسيو تاين –؛ وإنّي لأخشى أن يجد المرء لديّ حتّى في أرقى أشكال الـ Dithyrambus (أناشيد المديح الحماسيّة) شيئًا من ذلك الملح الذي لن يمكنه التحوّل إلى شيء غبيّ– «ألمانيّ» –: *esprit*!.. ليس لي من خيار في ذلك. فليكن الله في عوني! آمين.

كلنا يعرف، والبعض عن تجربة شخصيّة، ما هو الحيوان ذو الأذنين الطويلتين. إذًا! أستطيع أن أجزم بأنّ لي أصغر ما يمكن من الأذنين. وليس هذا بالأمر الذي لا يعني النساء إلاّ قليلا؛ إذ يبدو لي أنّهن يشعرن بتفهّم أفضل من قِبلي؟... إنّني نقيض الحمار *par excellence* بامتياز، وذلك هو ما يجعل منّي غولا تاريخيًّا – أنا في اليونانيّة، وليس في اليونانيّة فقط، نقيض المسيح... *Antichrist*

أعرف إلى حدّ ما امتيازاتي ككاتب؛ وفي بعض الحالات المنفردة قد ثبت لي أيضًا إلى أيّ حدّ يمكن لمعاشرة كتاباتي أن «تفسد» الذوق. لن يمكن للمرء بعدها تحمّل بقيّة الكتب، وبخاصّة الكتب الفلسفيّة. إنّه امتياز لا مثيل له أن يلج المرء هذا العالم السامي والدّقيق- لكن ينبغي له من أجل ذلك أن لا يكون ألمانيًّا بالمرّة؛ فهو بالنهاية امتياز لا يحصل إلاّ عن جدارة. أمّا من كان شبيها بي في علوّ إرادته فسيحظى بالنشوة الحقيقيّة للمعرفة؛ ذلك أنّني قادم من أعالٍ لم يحلّق فوقها طائر، وعرفت أعماقًا لم تجرؤ قدم على التيه في أغوارها. لقد قيل لي إنّه من غير الممكن لامرئ أن يدع كتابًا من كتبي إذا ما شرع في قراءته؛ إنّني أُدخل الاضطراب حتّى على هجعة الليل... ليس هناك أيّ صنف من الكتب أكثر شموخًا ورهافة في الآن ذاته؛ إنّها تبلغ هنا وهناك أرقى ما يمكن أن يُتوصّل إليه على الأرض: الصلافة الكلبيّة. وعلى من يروم غزوها أن يتناولها بالأصابع الأكثر لينًا وبالقبضة الأكثر صرامة في الآن ذاته. كلّ وهن في الرّوح سيصدّ عنها نهائيًا وإلى الأبد، وكذلك كلّ عسر هضم: ليست أعصابًا ما يحتاجه المرء، بل أمعاءً مرحة. ليس فقر الروح فقط وعطن هوائها هي التي تصدّ عن كتبي، بل أكثر من ذلك الجبن وعدم النقاوة ورغبة الانتقام الدفينة المعشّشة في الأمعاء: كلمة واحدة منّي تكفي لنشر كلّ الغرائز السيّئة على صفحة الوجه. لديّ من بين معارفي العديد من الحيوانات المخبريّة التي تمكّنني من اختبار ردود الفعل العديدة وذات الإفادة المتنوّعة التي تثيرها كتاباتي. أولئك الذين لا رغبة لهم في الاهتمام بما تحتويه هذه الكتب، أصدقائي

المزعومون مثلا، يغدون «محايدين»: يتمنّون لي حظًّا سعيدًا من أجل بلوغ «شوط أبعد»؛ ويرون حصول تقدّم ما لديّ قد تجسّد في اعتدال النبرة... أمّا تلك «الأنفس» المكتملة الخبث، «الأنفس السمحة»، المنقّعة في الكذب من أخمص القدم حتّى قمّة الرّأس فهي لا تدري بالنهاية ما الذي تفعله بهذه الكتب، ولذلك تعتبرها شيئًا دون مستواها: إنّه المنطق الجميل لكلّ «الأنفس السمحة». أمّا الدّابّة ذات القرنين من بين معارفي - وهم ألمان، بعد إذنكم- فتشير لي بأنّها «لا تشاطرني دائمًا أفكاري، لكن، مع ذلك فهنالك من حين لآخر...». لقد سمعت مثل هذا الكلام حتّى عن زرادشت...

إنّني أعتبر كلّ «نسويّة»، لدى الرجل أيضًا، بابا مقفلا: لن يستطيع النسويّون ولوج متاهة المعرفة الجريئة هذه أبدًا. لأنّه ينبغي أن لا يكون المرء متعوّدًا على معاملة النفس بلين وعلى إعفاء النفس من المتاعب، بل أن تكون الشدّة جزءاً من عاداته (السلوكيّة) كيما يظلّ مرحًا منشرح الصّدر في خضمّ الحقائق القاسية. وعندما أتمثّل صورة لقارئي النموذجيّ، فإنّه يتراءى لي في هيأة كائن فظيع الشجاعة وحبّ الإطلاع، وإلى جانب ذلك على شيء من المرونة والدّهاء والحذر؛ مغامر ومستطلع بالطبع. وبالنهاية لن يكون بمستطاعي أن أعبّر عن الأمر كما فعل زرادشت، الوحيد الذي أتوجّه إليه بالكلام في الواقع. لمن يريد إذًا أن يحكي ألغازه؟

لكُم أنتم البحّاثة الجريئون، المستطلعون/ المستكشفون، وكلّ من يبحر بأشرعة ماكرة في محيطات الأهوال - أنتم، المنتشون بسكر الألغاز الغامضة، المبتهجون في تداخل النّور والعتمة، الذين تستدرج أرواحَهم الهُوى السحيقة بأنغام النّايات:

لأنّكم أبدًا لن تحبّذوا السير متلمّسين بأيادٍ جبانة خيطًا يدلّكم على الطريق؛ وتكرهون فتح الأبواب حيث يكون بإمكانكم أن تحزروا.

4

أريد أن أقول بالمناسبة كلمة سريعة حول فنّ الأسلوب لديّ. نقلُ حالة ما أو توتّر داخلي تحدثه الانفعالات النفسيّة بواسطة علامات، وكذلك وتيرة توارد هذه العلامات؛ ذلك هو الكنه الحقيقي لكلّ أسلوب. وبما أنّ تعدّد الحالات النفسيّة يبلغ مستوى خارقًا للعادة لديّ فإنّ إمكاناتي الأسلوبيّة متعدّدة أيضًا؛ أكثر الأساليب تنوّعًا على الإطلاق ممّا لم يكن لأحد البتّة أن يحوز على مثله. جيّدٌ هو كلّ أسلوب يستطيع أن ينقل حالة نفسيّة كما ينبغي، ولا يخطئ تحديد وتيرة العلامات والحركات - كلّ قوانين الانتظام الدّوري مرتبطة بطريقة أداء الحركات -. في هذا المضمار لا يشوب غرائزي خلل. إنّ الأسلوب الجيّد في ذاته خور صرف، مجرّد «مثاليّة»، تمامًا مثل «الخير في ذاته» و«الشيء في ذاته»... إذا ما افترضنا طبعًا أنّ هنالك آذانًا صاغية لمثل هذه الأقاويل، وأنّ هنالك أناسًا من القادرين والجديرين بمثل هذه المشاعر كي يحقّ للمرء أن ينقلها إليهم. زرادشت، مثلا، ما زال يبحث عن مثل هؤلاء. وللأسف! سيكون عليه أن يبحث طويلا! على المرء أن يكون حقيقًا بذلك كي يستطيع تثمينه... وحتّى ذلك الحين لن يكون هناك من أحد بمستطاعه أن يدرك مدى الفنّ الذي وقع تبديده هنا: ما من أحد

من قبل قد بدّد أكثر من هذا القدر من الإمكانات الفريدة من نوعها والوسائل الفنيّة الجديدة والمبتكرة خصيّصًا لهذا الغرض. أن يكون مثل هذا الأمر ممكن الحصول داخل اللغة الألمانيّة بالذّات، ذلك ما لم يستطع أحد أن يقيم الدليل عليه من قبل: بل لقد كنت، أنا نفسي، أوّل من كان سينفي ذلك بشدّة في ما مضى. لم يكن لأحد قبلي أن يعرف ما الذي يمكن أن يُصنع من اللغة الألمانيّة، بل ما كان يمكن أن يُصنع من اللغة عامّة. إنّ فنّ الإيقاع العظيم، والأسلوب الراقي للانتظام الدّوري للتعبير عن حركات الصعود والانحدار الرهيبة للصبوة الجليلة والجبّارة قد وقع اكتشافها من قِبلي أنا. لقد استطعت بنشيد مدائحيّ مثل ذلك الذي اختتم به الجزء الثالث من زرادشت، تحت عنوان: «الأختام السبعة»، أن أحلّق على مسافة ألف ميل فوق كلّ ما كان يسمّى شعرًا حتّى ذلك الحين.

5

أن تدرك من خلال كتاباتي أنّك بحضرة خبير نفسانيّ، خبير نفسانيّ ليس له من مثيل، فتلك على أغلب الظنّ هي أولى قناعة ينبغي أن يتوصّل إليها قارئ جيّد - قارئ من ذلك الصنف الذي أستحقّ، قادر على قراءتي بالطريقة التي كان الفيلولوجيون القدامى يقرؤون بها هوراس.

إنّ المقولات التي يتوحّد حولها مجمل الناس - كي لا نتكلّم عن < فلاسفة العموم > والوعّاظ وغيرهم من الرؤوس الخاوية، رؤوس الكرنب - تبدو لديّ مثل سذاجات ناجمة عن خطإ في

التقدير: مثلا ذلك الاعتقاد بأنّ «الغيريّة» و«الأنانيّة» نقيضتان، في حين أنّ الـ «أنا» *(ego)* في حدّ ذاتها مجرّد «خدعة كبرى»، و«مثال». . .

ليس هناك لا تصرّفات أنانيّة ولا تصرّفات غيريّة: المفهومان كلاهما محض خلط سيكولوجيّ. وكذلك هو الشأن بالنسبة لمقولات «الإنسان يطمح إلى السعادة»، أو «السعادة جزاء الفضيلة»، أو «اللذّة والألم نقيضتان». . . إنّ الأخلاق؛ كيركا الساحرة(*) التي تغوي الإنسانيّة، قد زوّرت مجمل ما يتعلّق بقضايا النفس البشريّة - أخلَقَتُها حدّ إعلان ذلك اللغو الكريه القائل بأنّ الحبّ لا بدّ أن يكون شيئًا «غير أنانيّ». . . على المرء أن يكون جالسًا على نفسه بثقل، أن يكون واقفًا على قدميه بثبات، وإلا فلن يمكن له أن يحبّ. إنّ النساء، بالنهاية عارفات أكثر ممّا ينبغي بهذا الأمر؛ هنّ اللاتي لايدرين إلى أيّ شيطان يبعثن بأولئك الرجال اللاأنانيّين، الرجال الموضوعيّين. . . هل يُسمح لي بالمناسبة أن أعبّر عن اعتقادي بأنّني أعرف النساء؟ لعلّ ذلك من جملة مكتسباتي الديونيزيّة. من يدري؟ لعلّني الخبير النفسي بالأنثى الخالدة. كلّهنّ يحببنني - وهذه حكاية قديمة - باستثناء النساء الشقيّات، و«المتحرّرات» من اللواتي تعوزهنّ القدرة على الإنجاب. ومن حسن حظّي أنّه لا نيّة لديّ في أن أدع نفسي أتمزّق؛ فالأنثى الحقيقيّة تكسر وتمزّق إذا ما أحبّت. . . أعرفهنّ جدًا أولئك الفاتنات اللطيفات. يا لهنّ من كواسر صغيرة،

(*) Circe أو Kirke ساحرة من الأسطورة اليونانيّة تغوي الرجال مستعملة صوتها العذب لاستدراجهم، وهي التي حوّلت رفاق أوليس إلى خنازير في الأوديسة. (المترجم)

خفيّة، متسلّلة وخطيرة! ولذيذات جدًّا مع ذلك! إنّ امرأة تلاحق رغبتها في الانتقام ستدهس وتقلب القدَر نفسه في طريقها. المرأة أشدّ خبثًا بكثير من الرجل وأكثر حيلة. الطيّبة شكل من أشكال **الانحطاط** لدى المرأة. أمّا اللواتي يدعون بـ«الأنفس السمحة» فلهنّ دومًا وضع فيزيولوجيّ غير سعيد يعانين منه - ولن أقول كلّ شيء وإلاّ لتحوّلت إلى طبيب بارد الإحساس -. إنّ الصراع من أجل مساواة الحقوق هو في حدّ ذاته عرض مرَضيّ - كلّ طبيب يعرف ذلك -. فالمرأة، كلّما كانت أكثر أنوثة، إلاّ وتصدّت بيديها وقدميها لكل أنواع القوانين والحقوق: فالوضع الطبيعيّ، وضع **الحرب** الدائمة بين الجنسين يمكّنها من تبوّء مرتبة الفوز بتفوّق هائل.

هل استمع أحد إلى تعريفي للحبّ؟ إنّه التعريف الوحيد الذي يليق بفيلسوف. الحبّ؛ وسيلته الحرب، وخلفيّته العميقة الحقد القاتل الذي يكنّه كلّ جنس للآخر.

هل استمع أحد إلى جوابي عن سؤال كيف يمكن **معالجة** امرأة - «تخليصها»؟

أن تُمنح ولدًا. إنّ المرأة في حاجة دومًا إلى أطفال، وليس الرجل على الدوام سوى وسيلة لبلوغ هذا الغرض - هكذا تكلّم زرادشت.

«تحرّر المرأة» هو غريزة حقد المرأة **الفاشلة**؛ أي تلك العاجزة عن الإنجاب تجاه المحظوظة؛ وليس الصراع ضدّ «الرجل» سوى وسيلة وتعلّة وخطّة مراوغة، ليس إلاّ. إنّهنّ لا يفعلن عبر الارتقاء **بأنفسهنّ** تحت عنوان «المرأة بذاتها» و«المرأة الراقية» و«النمط المثالي

للمرأة» سوى الحطّ من منزلة المرأة بصفة عامّة؛ وليس من وسيلة أضمن لبلوغ هذا الغرض من تعليم المعاهد، والبنطلونات والحقّ السياسي للدّابّة المنتخِبة. وفي الواقع إنّ المتحرّرات هنّ **الفوضويّات** في عالم «الأنثى الخالدة»، الفاشلات اللاتي يعمّر الحقد غرائزهنّ الدفينة. إنّ رهطًا بأكمله من أصحاب «المثاليّة» الأكثر شرًّا–رهط يمكن للمرء أن يلاقيه لدى الرجال أيضًا، مثل هنريك إيبْسن ذلك العانس النموذجيّ – هدفه هو تسميم الضمير المعافى والسلوك الطبيعيّ في الحبّ الجنسيّ... وكي لا أدع أيّ مجال للشكّ حول رأيي الصادق بقدر ما هو قاس أريد أن أُعلن لكم عن أحد بنود قانوني الأخلاقي ضدّ **الرذيلة**: تحت اسم الرذيلة أكافح ضدّ أيّ ضرب من ضروب معاكسة الطبيعة، أو إذا ما كنّا نفضّل كلاما أجمل، ضدّ المثاليّة. يقول هذا البند: «إنّ الدعوة إلى العفّة تحريض عموميّ على معاكسة الطبيعة. وكلّ تحقير للحياة الجنسيّة، وكلّ تدنيس لها بفكرة "الدّنس" هي الجريمة بعينها في حقّ الحياة – الخطيئة الحقيقيّة في حقّ الروح القدس للحياة.»

6

كي أُعطي فكرة عن نفسي كخبير نفسانيّ أورد الآن فقرة وردت في «ما وراء الخير والشرّ» – ولا أسمح بأيّ تخمين بخصوص من الذي أصف في هذا الموضع.

«عبقريّة القلب كتلك التي يتمتّع بها ذلك الباطنيّ العظيم، إله الغواية ومضلّل الضمائر؛ الذي يستطيع صوته بلوغ الأعماق القصيّة

لكلّ نفس؛ الذي لا ينطق بكلمة ولا يلقي بنظرة لا تكون في ثناياها نيّة الإغراء، التحكّم في فنّ الظهور إحدى مكوّنات براعته - لا الظهور بما هو، بل بما يخلق لدى متّبعيه فرصًا إضافيًا يجعلهم يزدادون على الدوام التفافًا حوله ويتبعونه بصفة أكثر فأكثر حميميّة وجذريّة... عبقريّة القلب التي تُخرس كلّ ذي هرج وغرور وتعلّمه الإصغاء، التي تصقل الأرواح الخشنة وتمنحها التمتّع بمذاق رغبة جديدة: أن تستلقي في صمت مثل مرآة لينعكس عمق السماء على صفحتها... عبقريّة القلب التي تعلّم اليد الخرقاء والمتهوّرة كيف تتريّث وتتناول بلطف ولباقة؛ التي تدرك الكنز الخفيّ والمنسيّ، وتستشفّ قطرة الطيبة والحلاوة الروحانيّة من تحت طبقة الجليد السميكة الكدرة؛ قضيب المجسّ الذي يدرك كلّ حبّة ذهب ظلّت طويلا مغمورة تحت ركام من التراب والأوحال... عبقريّة القلب التي يذهب كلّ من لامسها وقد غدا أكثر ثراءً؛ لا مباركًا ومفاجأً، لا مغمورًا ومسحوقًا بثروة آتية من الخارج بل غنيٌّ بذاته أكثر من ذي قبل، جديد أكثر من أيّ وقت مضى، متفتّق، ملفوح ومخترق بريح مذيبة للجليد، وقد يكون أكثر تردّدًا وأكثر رهافة وهشاشة وانكسارًا، لكنّه مفعم بآمال لا تطالها التسمية، ممتلئ بإرادات وتيّارات جديدة، مليء بلا-إرادات وتيّارات مضادّة جديدة...»

مولد التراجيديا

1

سيكون علينا أن ننسى بعض الأشياء إذا ما أردنا أن نكون عادلين تجاه «مولد التراجيديا» (1872). فقد مارس هذا الكتاب تأثيره، بل وأبهر الناس بما يُعدّ موقع الخلل فيه؛ أي بطابعه التطبيقيّ على الظاهرة الفاغنريّة، كما لو كانت تمثّل علامة طلوع. وتبعًا لذلك كان هذا المؤلَّف حدثًا في حياة فاغنر: فقط منذ بروزه غدا اسم فاغنر يوحي بآمال كبيرة. وإلى اليوم مازال البعض يذكّرني أثناء عروض الـ«بارسيفال» بأنّني أتحمّل مسؤوليّة في هذا التقدير الرفيع الذي ساد بخصوص القيمة الثقافيّة لهذه الحركة. وكثيرًا ما رأيت هذا المؤلَّف يُذكر باسم «المولد الجديد للتراجيديا من خلال روح الموسيقى»؛ ولم يكن ليصغى إلا لما يتعلّق بصيغة جديدة للفنّ وبنوايا ومهمّة فاغنر، في حين وقع إهمال ما كان يختفي داخل هذا المؤلّف في الواقع من أشياء ثمينة. «الهلينيّة والتشاؤم»: ذلك هو ما كان من الممكن أن يكون عنوانًا لا شبهة فيه؛ ذلك أنّه أوّل من

وضّح الطريقة التي مكّنت الإغريق من الانتصار على التشاؤم؛ كيف تجاوزوه. . . فالتراجيديا بالذات هي الدليل على أنّ الإغريق لم يكونوا متشائمين. هنا أيضًا قد أخطأ شوبنهاور كما أخطأ في كلّ شيء.

إذا ما تناولنا «مولد التراجيديا» بشيء من الحياد فسيبدو لنا غير ملائم للعصر.

وإنّه لن يخطر لأحد البتّة أنّ كتابته ابتُدئت تحت قصف معركة Woerth. لقد فكّرت في هذه المسائل أمام أسوار مدينة ميتز في ليالي أيلول الباردة أثناء أدائي لخدمة الإسعاف التي كنت ملحقًا بها أنذاك؛ غير أنّ النصّ يمكن أن يبدو كما لو أنّه قد كتب قبل خمسين سنة من ذلك. فهو سياسي محايد؛ «لا ألماني» يمكن أن يقال عنه اليوم. إنّه يفوح بهيغليانيّة مقززة، وفي البعض من صياغاته فقط يعلق به شيء من رائحة الكآبة المميّزة لشوبنهاور. هنالك «فكرة» - التناقض بين الديونيزي والأبولوني - قد وقعت ترجمتها بطريقة ميتافيزيقيّة؛ التاريخ نفسه قد اعتبر التطوّر المجسّد لهذه «الفكرة»؛ في التراجيديا تمّ إلغاء نقيض الوحدة. ومن هذا المنطلق فإن هناك أشياء عديدة، لا علاقة لها الواحدة بالأخرى في ما مضى، قد وجدت نفسها فجأة متقابلة، مضاءة ومفهومة الواحدة عن طريق الأخرى. . . الأوبرا والثورة على سبيل المثال . . .

التّجديدان الحاسمان في هذا الكتاب هما: أوّلا، فهم الظاهرة الديونيزيّة لدى الإغريق. يكشف لأوّل مرّة سيكولوجيّة هذه الظاهرة، ويرى فيها المنبت الأصلي لمجمل الفنّ الإغريقي. وثانيًا، فهم

الظاهرة السقراطيّة: لأول مرّة يتمّ التعرف على سقراط كآلة للتفكّك الإغريقي ونموذج للانحطاط: «العقل» ضدّ الغريزة؛ «العقل» بأيّ ثمن كسلطة خطيرة تنخر وتخرّب الحياة من الداخل!

وفي كامل الكتاب صمت عميق وعدوانيّ تجاه المسيحيّة، فلا هي بالأبولونيّة ولا هي بالديونيزيّة؛ إنّها تنفي كلّ القيم الجماليّة؛ القيم الوحيدة التي يثبتها «مولد التراجيديا»: إن المسيحية عدميّة في صميمها، بينما يبلغ الإثبات حدّه الأقصى في الديونيزيّة. مرّة واحدة وقع التلميح للقساوسة المسيحيّين كـ«جنس لئيم من الأقزام» وكـ«كائنات تحت-أرضيّة».

2

كانت تلك البداية عجيبة بما يفوق كلّ المقاييس. لقد اكتشفت القرين والجواب الوحيدين الذين يمنحهما التاريخ لتجربتي الداخليّة. وكنت بذلك أوّل من تمكّن من استيعاب الظاهرة البديعة للديونيزيّة. كما إنّني، عبر اكتشاف الوجه الحقيقي لسقراط كمنحطّ، أقمت الدليل بما لا يدع مجالا للالتباس على أنّ براعتي كخبير نفسانيّ في مأمن من مخاطر أيّة حساسيّة أخلاقانيّة (الحساسيّة كمرض- المترجم)- وكان اعتبار الأخلاق ذاتها كعرض انحطاط ابتكارا وحدثًا فريدًا من الدرجة الأولى في تاريخ المعرفة. ولكم هي عالية في كلتا الحالتين تلك القفزة التي أنجزتها متخطّيا الهراء السخيف البائس حول التضادّ القائم بين التفاؤل والتشاؤم!

كنت أوّل من رأى التضادّ الحقيقيّ: الغرائز المنحلّة التي تعمل بحقدها السريّ الدفين على محاربة الحياة (المسيحية، فلسفة

شوبنهاور، وحتّى فلسفة أفلاطون بمعنى محدّد ما، المثاليّة في مجملها، جميعها كأشكال نموذجيّة) من جهة، وصيغة الإثبات الأرقى المتولّدة عن الوفرة والإمتلاء بالحياة؛ الاستجابة الإثباتيّة للحياة دون تحفّظ، للألم أيضًا، وللذنب أيضًا، ولكلّ ما هو إشكاليّ وغريب في الوجود. هذه الاستجابة الإثباتيّة النهائية والأكثر بهجة، استجابة للحياة ذات تدفّق عارم نزق، لا تمثّل الفهم الأرقى فحسب، بل الفهم الأعمق أيضًا، ذلك الذي أثبتته الحقيقة والعلوم ودعّمته بصفة صارمة. لا شيء يمكن حذفه، ولا شيء فائض عن اللزوم. إنّ جوانب الوجود التي يرفضها المسيحيّون وغيرهم من العدميّين لتحتلّ في سلّم القيم مرتبة أعلى من تلك التي تقرّها غرائز الإنحطاط؛ ما صحّ لها أن تقرّ به كشيء جيّد. لا بدّ من الشجاعة كيما يتمكّن المرء من فهم هذا الأمر، ولا بدّ من فائض من القوّة التي هي الشرط الضروري للشجاعة؛ ذلك أنّه بقدر ما تسمح الشجاعة لنفسها بالمغامرة مضيًا إلى الأمام يكون المقدار المناسب من القوّة هو الذي يسمح للمرء من الإقتراب من الحقيقة. إنّ معرفة الواقع، والإستجابة الإثباتيّة للواقع تمثّل ضرورة بالنسبة للأقوياء بالقدر الذي يمثّل به الجبنُ والهروبُ من الواقع «المثالَ» بالنسبة للضعفاء الخاضعين لإيحاء الضعف. غير مسموح لهؤلاء الأخيرين أن يعرفوا: المنحطّون في حاجة إلى الكذب؛ إنّه إحدى شروط بقائهم.

من لا يتوقّف عند حدّ استيعاب عبارة «ديونيزي»، بل يستوعب نفسه أيضًا ضمن هذه العبارة، لن يكون في حاجة إلى تفنيد أفلاطون أو المسيحيّة أو شوبنهاور - إنه يشتمّ التعفّن. . .

3

ذلك الحدّ الذي توصّلت إليه في تحديد مفهوم «المأساوي» (التراجيدي)، وبالتالي الفهم النهائي الذي بلغته بخصوص كنه سيكولوجيّة التراجيديا قد عبّرت عنه من بعد أيضًا في «غروب الآلهة»: «الاستجابة الإثباتيّة للحياة حتّى في إشكالاتها الأكثر غرابة وحدّة؛ إرادة الحياة مع التضحية بأرقى نماذج مكوّنات الثراء الذاتي الذي لا يُستنفد، ذلك هو ما سمّيته ديونيزي، وذلك هو ما اعتبرته معبرًا إلى سيكولوجيّة الشاعر التراجيدي. لا من أجل التخلّص من الرعب والشفقة، وليس بهدف التطهّر من الصبوات الخطيرة عبر عمليّة تفريغ عنيفة - على هذا النحو أساء أرسطو الفهم -، بل لكي يتمكّن، في ما وراء الرّعب والشفقة، من أن يغدو التجسيد الحيّ للمتعة الخالدة للصيرورة ذاتها؛ تلك المتعة التي تحمل في داخلها متعة التدمير أيضًا...»

بهذا المعنى يحقّ لي أن أعتبر نفسي أول فيلسوف تراجيدي؛ أي بمعنى النقيض والطرف الأقصى المضادّ للفيلسوف المتشائم. لم يحدث قبلي قط أن أُجري مثل هذا النقل الذي حوّل الديونيزيّ إلى صبوة فلسفيّة: كان يُفتقر إلى الحكمة المأساويّة من أجل ذلك. ولقد بحثت عبثا عن أثر ما لهذا الأمر لدى الفلاسفة حتى من بين كبار اليونانيّين من أولئك الذين عاشوا قبل سقراط بقرنين. بقي لديّ شكّ بشأن هيراقليطس، ذلك الذي أشعر بجواره بدفء وارتياح لا أشعر بهما في أيّ موضع آخر. إثبات الزوال والاندثار؛ العنصر المحدِّد في الفلسفة الديونيزيّة، الإستجابة الإثباتيّة للتناقض والحرب

والصيرورة بما تتضمّنه من نفي راديكالي حتّى لمفهوم «الوجود» ذاته: هنا ينبغي عليّ في كلّ الأحوال أن أتعرّف على كلّ ما هو أقرب إليّ داخل كلّ ما تمّ التفكير فيه من قبل. إنّ نظريّة «العود الدائم»، أي التكرّر الضروري واللانهائي للدورة الحياتيّة لكلّ الأشياء - نظريّة زرادشت هذه، من الممكن بالنهاية أن يكون هراقليطس قد علّمها من قبل، وعلى الأقلّ فإنّ الرواقيّين الذين ورثوا كلّ رؤاهم الجوهريّة تقريبًا عن هيراقليطس يحملون بعضًا من بصماتها.

4

هذا المؤلَّف ينطق بأمل رهيب. وبالنهاية ليس لديّ أيّ موجب للتراجع عن الأمل الذي وضعته في مستقبلٍ ديونيزيٍّ للموسيقى. لنُلق نظرة سريعة على بعد قرن من الزمن في المستقبل. ولنفترض أنّ العمل التدميري الذي أجهزت به على ألفي سنة من مناقضة الطبيعة وتشْيين الإنسان سيكلّل بالنجاح. هذا التحزّب الجديد للحياة الذي سيتكفّل بأعظم مهمّة ألا وهي تنمية الإنسانيّة وما يتضمّنه ذلك من القضاء على العناصر المتفكّكة والطفيليّة، سيوفّر فائضا من الحياة على الأرض ينبثق منه حتماً وضع ديونيزيّ جديد. إنّني أعد بمجيء عصر تراجيديّ: سيولد الفنّ الأرقى للاستجابة الإثباتيّة للحياة (التراجيديا) من جديد عندما تكون الإنسانيّة قد تركت وراءها وعي الحروب الأكثر قسوة، والأكثر ضرورة أيضًا، دون أن تكون قد تضرّرت من جرّائها...

يمكن لخبير نفسانيّ أن يضيف أنّ ما سمعته في أيّام شبابي وأنا

أستمع إلى الموسيقى الفاغنريّة لا يمتّ إلى فاغنر بصلة، وأنّني وأنا أصف الموسيقى الديونيزيّة كنت أصف ما سمعته أنا؛ أي أنّه كان عليّ أن أترجم كلّ شيء وأحوّله عبر الروح الجديدة التي كنت أحملها في داخلي، والدليل على ذلك - دليل قويّ كما لا يمكن إلاّ لدليل قاطع أن يكون- هو كتاب «فاغنر في بايرويت». في كلّ المقاطع ذات الدلالة البسيكولوجيّة الحاسمة كنت أنا وحدي موضوع الكلام، بحيث يمكن للمرء أن يضع دون حرج إسمي أو إسم زرادشت في أيّ موضع يذكر النصّ فيه إسم فاغنر. إنّ الصورة التي تقدّم هناك عن الفنّان الديثيرامبي ليست سوى صورة مسبّقة لشاعر زرادشت؛ صورة مرسومة بعمق سحيق، ومن دون أيّة ملامسة ولو عابرة للواقع الفاغنري. ولقد أدرك فاغنر نفسه هذا الأمر إذ لم يتعرّف على نفسه في ذلك النصّ. كما أنّ «أفكار بايرويت» قد تحوّلت هي أيضًا إلى شيء لم يعد لغزا غامضًا على كلّ العارفين بزرادشت: إنّها تلك الظهيرة العظمى حيث صفوة المصطفين منصرفون لأجَلِّ المهمّات على الإطلاق - من يدري؟ لعلّها رؤيا عيدٍ سيُكتب لي أن أشهده ذات يوم...

إنّ النبرة الاحتفاليّة التي تطغى على الصفحات الأولى لهي ذات طابع تاريخيّ كونيّ، وتلك النظرة التي تتحدّث عنها الصفحة السابعة إنّما هي نظرة زرادشت؛ وليس فاغنر وبايرويت وتلك الحقارة الألمانية المثيرة للشفقة سوى سحابة يتمرأى من خلالها الطيف اللامتناهي لصورة للمستقبل. وحتّى من وجهة النظر النفسيّة تجد الملامح الأساسيّة لطبيعتي الخاصّة نفسها مرسومة في الصورة التي أقدّمها عن فاغنر: تجاور القوى الأكثر إضاءة والأكثر خطرًا، إرادة

القوّة التي لم يُكتب لأحد أن امتلك مثلها، الفتوّة التي لا تعرف ورعا أو مراعاة في مجال المسائل الفكريّة، الطاقة اللامحدودة على التعلّم دون طمس لإرادة الفعل. لقد وقع الإعلان عن كلّ ما سيأتي في هذا النصّ: عودة الروح الإغريقيّة، وضرورة وجود رجال مضادّين للاسكندر ليعيدوا عقد رباط الثقافة الإغريقيّة المتين بعد أن حُلّ وثاقه... على المرء أن يصغي إلى النبرة التاريخيّة الكونيّة التي يتم بها تقديم مفهوم «الإحساس التراجيدي»؛ هنالك الكثير من النبرات التاريخيّة الكونيّة في هذا النصّ. إنّه ضرب من «الموضوعيّة» الأكثر غرابة: اليقين المطلق بخصوص من **أنا** منعكس على واقع صدفويّ ما – حقيقتي تنطق من عمق قاع مخيف. في الصفحة 46 يوصف الأسلوب الزرادشتي ويُستعرض مسبقًا بوثوق قاطع؛ ولن يجد المرء البتّة تعبيرًا أرقى وأجلّ ممّا يجده في الصفحات 35 إلى 37 عن الحدث الزرادشتي بما هو فعل تطهير فائق للإنسانيّة وارتقاء بها إلى منزلة القداسة.

معاينات غير معاصرة

1

المعاينات غير المعاصرة الأربع كلها ذات طابع هجوميّ محارب. إنّها تدلّ على أنّني لم أكن (أبدًا) شخصًا حالمًا، وأنّني أجد متعة في استلال السيف - ولعلّني أيضًا أتمتّع بيد ذات مهارة خطيرة. كان الهجوم الأوّل (1873) موجّها ضدّ الثقافة الألمانيّة التي كنت منذ ذلك الوقت أنظر إليها باحتقار لا يعرف المداراة. ثقافة خالية من المعنى، دون محتوى، ودون هدف: مجرّد «رأي عام» لا غير؛ وإنّه ليس هنالك ما هو أشدّ خطرًا من الاعتقاد بأنّ النجاح الحربي الكبير للألمان يمكن أن يدلّ على شيء لصالح هذه الثقافة - أو على انتصارهم على فرنسا...

أمّا المعاينة الثانية (1874) فتكشف عمّا هو خطير، عما ينخر الحياة ويسمّمها في طريقتنا التي نتعاطى بها النشاط العلمي: **اعتلال** الحياة بسبب هذا الدولاب وهذه الآليّة المجرّدة من أيّ طابع إنسانيّ؛ من جرّاء تجرّد العامل من شخصيّته ،ومن جرّاء الاقتصاد

الخاطئ لـ«تقسيم العمل». الهدف الذي هو الثقافة يضمحلّ؛ والوسيلة - النشاط العلميّ الحديث يقود إلى التّوحّش. . . في هذه المقاربة يتمّ لأوّل مرّة كشف القناع عن «المغزى التاريخي» الذي يعدّ مفخرة هذا القرن وفضحه كمرض وكعلامة نموذجيّة للتفكّك.

وفي المعاينتين الثالثة والرابعة يتمّ، بما يشبه إشارة بإصبعين ضمن مفهوم أرقى للثقافة ولإعادة بناء الثقافة، مقابلة صورتين عن الوله الذاتي والتربية الذاتيّة الأشدّ صلابة؛ نموذجين غير معاصرين بامتياز *par excellence* مفعمين باحتقار واثق تجاه كلّ ما يدعى من حولهما «رايخ» و«ثقافة » و«مسيحيّة» و«بيسمارك» و«نجاح» - إنّهما شوبنهاور وفاغنر، أو بكلمة واحدة: نيتشه. . .

2

من بين هذه الضربات العنيفة الأربع كانت الأولى ذات نجاح خارق. ولقد كان الدويّ الذي أحدثته رائعا على جميع المستويات. استطعت هنا أن أصيب الموقع الحساس من أمّة منتشية بانتصارها؛ أن أبيّن أنّ انتصارها ليس بالحدث الحضاريّ، بل ربّما، ربّما شيئًا آخر تمامًا. . . وجاء الردّ من كلّ الجهات، لا من الأصدقاء القدامى لدافيد شتراوس فقط؛ ذلك الذي سبق أن هزّأته كنموذج للمثقّف الألماني الدجّال والمطمئنّ *satisfait* وباختصار كمصنّف لإنجيل حانات شعبيّة بكتابه «المعتقدات القديمة والجديدة» (قد اقتحمت عبارة «المثقّف الدجّال» مجال الإستعمال اللغوي ابتداء من كتابي هذا). جاء ردّ هؤلاء الأصدقاء القدامى الذين جرحت مشاعرهم كفيتنبارغيّين وشوابيّين عندما اعتبرت أعجوبتهم؛ أي شتراوْس(هم)

مدعاة للسّخرية؛ ردّوا بطريقة تعادل في استقامتها وسماجتها ما كنت أتمنّاه إلى حدّ ما، بينما كانت ردود البروسيّين أكثر دهاء؛ كانت تحمل ذلك الطابع البرليني ("Blau berliner"). أمّا أكثر الردود بذاءة فكانت من نصيب صحيفة من لايبزيخ وهي الـ Grenzboten سيّئة الصّيت؛ وكان عليّ بسبب ذلك أن أبذل جهدًا كبيرًا كي أهدّئ من فورة الاستياء لدى جماعة بازل وأكبح جموحهم إلى المنازلة.

هنالك فقط عدد قليل من السادة المتقدّمين في السنّ هم الذين انتصروا لي لأسباب مختلفة وغير بيّنة في بعض الأحيان، أذكر من بينهم إيفالد من غوتنغن الذي أفاد بأنّ هجمتي كانت ضربة قاضية بالنسبة لشتراوس، وكذلك الهيغلي العجوز برونو باور الذي أصبح ابتداء من ذلك الوقت أحد قرّائي الأكثر اهتمامًا. كان في سنواته الأخيرة يحبّ أن يحيل عليّ، وأن يدلّ مثلا السيّد فون ترايتشكا المؤرخ البروسي على المرجع الذي ينبغي عليه أن يبحث فيه عن معلومات بخصوص مفهوم «الثقافة» الذي افتقده كليًا. أمّا الصفحات الأكثر عمقًا والأكثر طولا حول هذا الأثر وكاتبه فقد كانت تلك التي كتبها تلميذ قديم لبادر هو الأستاذ هوفمان من فورتزبورغ. فقد تكهّن لي من خلال هذا المؤلَّف بمهمّة جسيمة: إحداث نوع من أزمة وقرار قاطع في مسألة الإلحاد الذي ارتأى فيّ نموذجه الأكثر غريزيّة وجذريّة. إنّ الإلحاد هو الذي قادني إلى شوبنهاور.

أمّا ما فاق الجميع في جلب الانتباه وإثارة أكثر ما يمكن من المرارة هي تلك المرافعة الخارقة للعادة في قوّتها وشجاعتها التي قام بها كارل هيلبراند الرقيق عادة، ذلك الإنسانيّ الألماني الأخير الذي يتقن معالجة القلم. لقد قرأ الناس مقالته تلك في «صحيفة

أوغسبورغ»، ويمكن للمرء قراءتها اليوم في شكل أكثر حذرًا بقليل ضمن أعماله الكاملة. في هذه المقالة يتمّ تقديم المؤلَّف على أنّه حدث، نقطة تحوّل، وعي ذاتيّ جديد وعلامة جيّدة، ويعتبره عودة حقيقيّة للجديّة الألمانيّة والإندفاع الألمانيّ المغرَم في مجال الأمور الذهنيّة. كان هيلبراند كلّه تقدير وإعجاب بأسلوب الكتاب وبنكهة النضج التي تميّزه وبرهافته التامّة في تمييز الأشخاص والأشياء. رأى فيه أفضل الكتابات السجاليّة في اللغة الألمانيّة؛ ذلك الصنف من فنّ السجال بالذات الذي يعتبر خطيرًا ومن المحبّذ تلافيه بالنسبة للألمان. يعرب هيلبراند عن موافقته التامّة لمواقفي، بل ويمضي أبعد منّي بخصوص ما تجرّأت على قوله حول رثاثة اللغة في ألمانيا («إنّهم يتظاهرون اليوم بالصفويّة وهم لا يستطيعون تركيب جملة واحدة»)، وبنفس الاحتقار تجاه «الكتّاب الكبار» لهذه الأمة يُنهي مقالته بالتعبير عن إعجابه بشجاعتي؛ تلك «الشجاعة القصوى التي تجرّ مبجّلي أمّة إلى قفص الإتّهام»... لقد كان لهذا المؤلَّف أثر لا يقدّر على حياتي في ما بعد. لا أحد يرغب في مخاصمتي منذ ذلك الوقت. سكت عنّي الجميع، وصرت أعامل في ألمانيا بحذر متجهّم: منذ سنوات عديدة أصبحت أتمتّع بحريّة مطلقة في الكلام ليست في متناول أحد اليوم؛ داخل «الرايخ» على الأقلّ. جنّتي «في ظلّ سيفي»... وفي الحقيقة قد عملت بمقولة لستندال الذي ينصح بتدشين الدخول إلى المجتمع الراقي بمبارزة. ولكم أجدت اختيار الخصم! إنّه المفكّر الحرّ الأوّل بألمانيا!... ولقد كان ذلك في الواقع نوعا جديدًا من الفكر الحرّ الذي عبّر عن نفسه لأوّل مرّة من خلال هذه العمليّة: ليس هناك، إلى حدّ اليوم، ما هو أكثر غرابة

بالنسبة لي من تلك الفصيلة من الـ *libres penseurs* («المفكّرين الأحرار») بكلّيتها؛ أوروبيّين وأميركيّين على حدّ السواء. وإنّني لأجد نفسي مع هذه الفئة من الرؤوس المسطّحة ومهرّجي «الأفكار الحديثة» في خلاف أعمق من خلافاتي مع أيّ من خصومهم. إنهم، هم أيضا يريدون، بطريقتهم الخاصّة، «إصلاح» البشريّة وفقًا لصورتهم الخاصّة؛ يعلنون حربًا لا هوادة فيها على ما يمثّل هويّتي، وعلى ما أريد – إذا ما افترضنا طبعًا أنهم يفقهون ذلك؛ إنهم مازالوا يعتقدون جميعهم في «المُثل»... إنّني اللاأخلاقيّ الأوّل –

3

لن أدّعي بأنه بإمكان المعاينتين الحاملتين لاسمي فاغنر وشوبنهاور أن تقدّما خدمة خاصّة لفهم هاتين الحالتين أو حتّى لمجرّد وضعهما موضع التساؤل البسيكولوجي، عدا في بعض الجزئيّات بطبيعة الحال؛ هكذا تمّ مثلا منذ ذلك الحين، وبوثوق غريزيّ عميق، تحديد ونعت العنصر الأساسي في طبيعة فاغنر بـ: موهبة الممثّل، تلك الخصلة التي تحدّد مجمل سلوكه وسائل ونوايا. لقد كنت في الحقيقة أرغب في القيام بشيء آخر غير التحليل النفسيّ:– مسألة تربويّة ليس لها من مثيل، مفهوم جديد للتربية الذاتيّة، والدفاع الذّاتي يذهب حدّ القسوة؛ درب باتّجاه العظمة ونحومهمآت تاريخيّة كونيّة يهفو إلى التعبير عن نفسه لأوّل مرّة ههنا. وفي الجملة فقد أمسكت بناصية شخصيّتين شهيرتين وغير ثابتتي الموقع بعد كما يمسك الواحد بفرصة من ناصيتها من أجل التعبير عن شيء ما، ومن أجل احتياز بعض الصيغ، والعلامات

والوسائل التعبيريّة الإضافيّة. ولقد لمّحت إلى هذا الأمر بفطنة رهيبة في الصفحة 93 من المعاينة غير المعاصرة الثالثة. بنفس الطريقة استخدم أفلاطون أرسطو؛ في توظيف سيميائيّ للإخبار عن أفلاطون.

الآن، وأنا ألقي نظرة إلى الوراء وبشيء من البعد على تلك الحالات التي تُخبر عنها هذه النصوص، لا يمكنني أن أنكر أنّها كانت في الحقيقة لا تتكلّم إلاّ عنّي أنا. مؤلَّف «فاغنر في بايرويت» هو رؤيا لمستقبلي؛ بينما يمثّل «شوبنهاور مربّيًا» كتابةً لتاريخي الداخلي ولصيرورتي. وفي المقام الأوّل العهد الذي أخذته على نفسي!...

مَن أنا الآن، وأين أقف الآن؛ في أعالٍ حيث لم أعد أتحدّث بكلمات، بل بصواعق - آه، لكم كنت بعيدًا عن هذا كلّه أنذاك! - لكّنني كنت أرى اليابسة. لم أغالط نفسي لحظة واحدة بشأن الطريق، والبحر، والمخاطر - وكذلك النجاح! ذلك الهدوء الكبير الذي في الوعد! الرؤية السعيدة في مستقبل لن يظلّ مجرّد وعد خاوٍ! - كلّ كلمة هنا معاشة، في العمق، بحميميّة؛ لا تنقصها الأشياء الأكثر إيلاما، وهنالك من بينها كلمات نازفة بالفعل. لكنّ ريح الحريّة الكبرى تهبّ فوق هذا كلّه؛ والجرح نفسه لا يتّخذ هيأة الاعتراض.

كيف أتمثّل الفيلسوف، كمادّة انفجاريّة مرعبة تضع كلّ ما أمامها في خطر؛ كيف أفصل مفهومي لـ«الفيلسوف» أميالاً عن ذلك المفهوم الذي يضمّ داخله حتّى واحدًا مثل كنط، كي لا أذكر تلك

«المجترّات» الأكاديميّة وأرهاطاً أخرى من أساتذة الفلسفة: بخصوص هذه المسائل كلها يقدّم هذا المؤلَّف درسًا لا يقدّر بقيمة، إذا ما اعتبرنا بالخصوص أن ليس «شوبنهاور المربّي»، بل نقيضه «نيتشه المربّي»، هو الذي يتكلّم هنا.

وإذا ما اعتبرنا أنّ حرفتي آنذاك كانت حرفة عالم، وأنّني كنت، على ما أعتقد، عارفًا بحرفتي أيضًا، فإنّ ذلك المقدار من البسيكولوجيا القاسية الذي يتجلّى فجأة في هذا النصّ لن يكون غير ذي دلالة: إنّه يعبّر عن حسّ المسافة، وعن الوثوق العميق في تمييز ما يمكن أن يكون مهمّة بالنسبة لي، وما هو مجرّد وسيلة، فاصل انتقالي وعمل جانبيّ. إنّه لمن باب الفطنة لديّ أن أكون متعدّدًا، وأن أحتلّ مواقع عديدة من أجل أن أُصبح واحدًا؛ كي أنتهي إلى هذا الكيان الموحّد. كان عليّ إذًا أن أكون لفترة من الزّمن عالِمًا أيضًا.

إنسانيّ مفرط في الإنسانيّة
مع إضافتين

1

«إنسانيّ، مفرط في الإنسانيّة» هو مَعْلَم لأزمة. إنّه يعلن عن نفسه ككتاب للعقول الحرّة: كلّ جملة فيه تقريبًا تعبّر عن انتصار. عن طريقه تخلّصت من كلّ ما هو غريب عن طبيعتي. غريبة عن طبيعتي هي المثاليّة، والعنوان يعلن: «حيثما ترون مُثُلا، أرى أمورًا إنسانيّة، بل لا شيء غير أشياء مفرطة في الإنسانيّة!»... إنّ لي معرفة أفضل بالبشر. - وعبارة «العقل الحرّ» لا يمكن أن تُفهم هنا إلاّ بهذا المعنى: إنّه عقل محرَّر قد استعاد تملّكه بذاته. لقد حدث تغيّر تامّ في اللهجة وفي نبرة الكلام: سيجد المرء هذا الكتاب ثاقب الذكاء ورصينًا، وفي بعض الأحيان قاسيا وساخرا. إنّ ضربًا من «الرفعة الذهنيّة» ذات الذوق النبيل تظلّ تجاهد هنا على الدّوام من أجل السيطرة على تيّار الاندفاع الحماسيّ الذي يعتمل في الأعماق. وفي هذا المضمار يغدو ذا دلالة أن تكون الذكرى المئويّة لوفاة فولتير تعلّة لصدور هذا الكتاب في سنة 1878. إذ أنّ فولتير، وخلافًا

لكلّ من كتب من بعده، يظلّ قبل كلّ شيء *un grand seigneur* – سيّداً كبيراً في مجال الفكر: تمامًا مثلي أنا أيضًا – اسم فولتير فوق كتاب لي؛ إنّه فعلا لتقدّمٌ – **باتّجاه نفسي**... وإذا ما نظرنا إلى الأمرعن كثب، سنكتشف عقلا لا يرحم، يعرف كلّ المخابئ التي ينزوي إليها المثال؛ هناك حيث قلعة سجنه وملجؤه الآمن الأخير في الآن ذاته. مسلّحًا بشعلة في اليد، لا ذات نور مرتعش، تسلّط ضوءًا ساطعًا على دهاليز ذلك **العالم الخبيء** للمُثل. إنّها الحرب، لكنّها حرب دون بارود ودخان، دون هيئات قتاليّة، دون خطابة حماسيّة وتشنّجات في الأعضاء – إذ ذلك كلّه سيكون بدوره «مثاليّة». بهدوء تُجمَّد الأخطاء الواحد تلو الآخر؛ لا تُدحض المثاليّة، بل يقع **تجميدها**... هنا على سبيل المثال يتجمّد «العبقريّ»، وفي المنعرج الموالي يتجمّد «القدّيس»؛ وتحت طبقة سميكة من الجليد يتثلّج «البطل»؛ وفي النهاية تتثلّج «العقيدة» وما يدعى بـ«القناعة»؛ «الشفقة» أيضًا تبرد بصفة ملحوظة – في كلّ مكان تقريبًا يتثلّج «الشيء في ذاته»...

2

تعود بدايات هذا الكتاب إلى فترة احتفالات المهرجان الأوّل ببايرويت؛ إنّ شعورًا عميقًا بالغربة تجاه كلّ ما كان يدور من حولي أنذاك هو إحدى شروط تشكّله. ومن لديه فكرة عن الرؤى التي كانت تتجلّى لي في تلك الفترة، بإمكانه أن يحرز الإحساس الذي خالجني عندما استيقظت ذات يوم في بايرويت، تمامًا كما لو أنّني كنت أحلم... أين كنت إذًا؟ لم أستطع أن أدرك أيّ شيء، وكان

من الصعب عليّ التعرّف على فاغنر من جديد. عبثًا كنت أقلّب صفحات ذاكرتي: تريبشنْ، جزيرة سعادة نائية: ولا ذرّة من شبه ههنا. تلك الأيّام الرائعة التي لا مثيل لها؛ أيّام وضع حجر الأساس، وتلك الثلّة من الأعضاء المحتفلة بذلك الحدث، والتي ليس فيها أحد ممّن تنقصهم اليد الحسّاسة لكلّ المسائل الدّقيقة: ولا ذرّة من شبه مع هذا كلّه. ما الذي حدث؟ لقد وقعت اَلْمَنَةُ فاغنر! وغدا الفاغنريّ سيّدًا على فاغنر! - الفنّ الألماني! المايسترو الألماني! البيرة الألمانيّة!.. أمّا نحن، الذين نعرف جيّدًا إلى أيّ نوع من الفنّانين الرّاقين وإلى أيّ ذوق كسموبوليتي يتوجّه فنّ فاغنر، فقد كنّا نستشيط استياءً لرؤيته ملفوفا في عباءة «الفضائل» الألمانيّة - أعتقد أنّني أعرف الفاغنريّين؛ لقد «عايشت» ثلاثة أجيال منهم، بدءًا بالمرحوم برنْدل الذي يخلط بين فاغنر وهيغل، حتّى «مثاليّي» الصحف البايروتيّة الذين يخلطون بين فاغنر وأنفسهم -، لقد استمعت إلى كلّ أنواع «شهادات» الأنفس السمحة اللطيفة حول فاغنر. مملكة لكلمة الفطنة! مجتمع يبعث على الذعر في الواقع! نوهل، وبوهل، وكوهل، وقس على ذلك من هذا الرهط إلى ما لا نهاية! كوكبة لا ينقصها نذل واحد، ولا حتّى المعادي للساميّة. - يا لفاغنر المسكين! أيّة منزلة أنزل نفسه! لو أنّه قد سرح مع الخنازير على الأقلّ! لكن مع الألمان؟!... بالنهاية، من المفروض، خدمةً لإفادة الأجيال اللاحقة، أن يقع تحنيط بايروتيّ حقيقيّ، لا بل من الأفضل أن يحفظ منقّعًا في روح الكحول («السبيريتوس»)، ذلك أنّه يُفتقر إلى شيء من الرّوح على أيّة حال، ثمّ يُرفَق ذلك بيافطة تحمل عنوان: هذه عيّنة من «الروح» التي تأسّس عليها «الرّايخ»...

باختصار، قرّرت الرحيل فجأة وفي خضمّ هذه الأحداث، بالرغم من جهود المواساة التي بذلتها سيّدة باريسيّة لطيفة تجاهي، معتذرًا لفاغنر بتلغرام ذي طابع قدَريّ. . . وفي مكان قصيّ داخل غابات بوهيميا يدعى كلينغنبرون رحت أجرّ معي كآبتي واحتقاري لكلّ ما هو ألماني مثل مرض؛ ومن حين لحين كنت أخطّ جملة في دفتر الجيب تحت عنوانٍ جامعٍ: «سكةّ المحراث»؛ خواطر بسيكولوجيّة قاسية قد يجد المرء شيئًا منها بعدُ في كتاب «إنسانيّ مفرط في الإنسانيّة».

3

لم تكن القطيعة مع فاغنر هي الحسم الجوهريّ الذي حدث لديّ في ذلك الحين. بل إنّني شعرت بانحراف عامّ لغرائزي، لم تكن بعض الأخطاء الجزئيّة، سواء ممّا يحمل اسم فاغنر أو خطّة الأستاذيّة ببازل، سوى أعراض لها. طغى عليّ شعور بالضيّق من نفسي؛ وكنت أشعر بأنّه آن الأوان لكي أثوب إلى نفسي. فجأة بدا لي واضحا، وبطريقة تبعث على الذعر، كم من الوقت أنفقت هدرًا، وبأيّة طريقة عقيمة ولا مبرّرة كانت مشاغلي الفيلولوجيّة تسترقني من مهمّتي (الحقيقيّة). كنت خجولا من ذلك التواضع الكاذب. . . وورائي عشر سنوات ظلّ غذاء الروح خلالها متوقّفًا لديّ، حيث لم أتعلّم شيئًا مفيدًا، ونسيت الكثير في خضم انشغالي الأحمق بذلك الركام من المعارف النظريّة التي يغمرها الغبار؛ أدبُّ بدقّة نملة وببصر ضعيف بين العروضيّين القدامى - إلى هنا بلغ بي الحال! - أشفقت على نفسي وأنا أراني نحيلا جدًّا وهزيلا جدًّا: كان زادي

العلمي خاليًا تماما من كلّ ما هو واقعي، و«المثاليّات» لا طائل من ورائها! - استبدّ بي ظمأ مثل اللهب: منذ ذلك الحين لم يعد لي من شاغل غير الفيزيولوجيا والطبّ والعلوم الطبيعيّة - حتّى الدراسات التاريخيّة المحضة ذاتها لم أعد إليها إلاّ عندما كانت مهمّتي العلميّة تضطرّني إليها اضطرارًا. في ذلك الزمن بدأت أحدس العلاقة القائمة بين نشاط يختاره المرء ضدّ غريزته العميقة، ما يدعى «وظيفة» "Beruf"(*) وهو أبعد ما يكون عمّا تدعو إليه المؤهّلات الذاتيّة،

(*) لعبارة Beruf التي تعني في اللغة الألمانيّة المهنة استعمالات متعدّدة وخلفيّات ثقافيّة واجتماعيّة وعقائديّة متنوّعة منها:
- في الإستعمال المتداول تعني مهنة، كما تحيل أيضًا على عبارة Berufung التي تعني تكليفًا، أو دعوة، من قبل جهاز إداريّ ما للقيام بمهمّة أو خطّة. خلفيّة دينيّة تحيل أيضًا على عبارة Berufung في معنى التكليف الإلهي: *vocatio, officium* أو *convocare* اشتقاقا من الدعوة، والنداء، والمناداة: *appellatio* أو abrufen, aufrufen, anrufen. كما يمكن أن تفيد النداء في معناه الباطنيّ الذاتيّ، أو ما يمكن أن يعبّر عنه بالاستعداد والتأهّل الذاتي. هذه العبارة بتنويعاتها ودلالاتها المتعدّدة تتخلّل العديد من نصوص العهدين القديم والجديد، وكتابات مارتن لوثر. أنظر على سبيل المثال:
- التكوين: 49-1/ الخروج: 31-2 و35-30/ العدد: 10-2 / يشوع: 23-2 / الملوك الثاني: 3-21 / متّى: 2-7 و20-16/ مرقص: 6-7 . . . كثيرًا ما يعتمد نيتشه هذه الطريقة في الإحالات الضمنيّة على السجلّ الديني اللاهوتي ويلعب على تداخل السجلاّت المتعدّدة والمتنافرة أحيانًا كما لو أنّه يعمد إلى فضح الخلفيّات الذهنيّة الغامضة والمعقّدة للغة فيما يستغلّ ذلك التداخل بشيء من العبث الساخر في أغلب الأحيان إشارة وتلميحًا في سعيه إلى كشف القناع عن مراوغات اللغة وأحابيل استعمالاتها المتداولة. عبارة Beruf التي تتضمّن دلالة دينيّة مضفية بذلك صبغة من القداسة على «الوظيفة» و«العمل» (أنظر ماكس فيبر في كتابه الشهير: Kapitalism und protestantische Ethik)، تغدو هنا لدى نيتشه محيلة على ضرب من اغتراب الإنسان في العمل(الوظيفة/ المهنة) الذي لا يستجيب بالضرورة إلى المؤهلات الطبيعيّة أو «الغريزة العميقة» للفرد؛ فرض فوقي تفرضه سلطة متعالية ما. -المترجم

وبين تلك الحاجة إلى تسكين حدّة الخواء وجدب المشاعر بواسطة الفنّ المخدّر؛ بواسطة الفنّ الفاغنري مثلا. إنّ نظرة ملقاة بحذر على ما يحيط بي جعلتني أكتشف أنّ عددًا غير قليل من الشبّان يعاني من مثل هذه الحالة الرثّة: إنّ كلّ اغتصاب للطبيعة ينجرّ عنه حتمًا اغتصاب مماثل مواز. وفي ألمانيا، في ظلّ الرايخ -كي نتلافى كلّ إمكانية للغموض- هنالك عدد كبير جدًّا من الشبّان الذين يجدون أنفسهم مكرهين على اتخاذ قرارت سابقة لأوانها ليظلّوا بقيّة حياتهم ينوءون تحت عبء لم يعد بالإمكان التخلّص منه... هؤلاء يتوقون إلى فاغنر كمن يطلب أفيونة - ينسون أنفسهم فيه، ويتخلّصون للحظة من أنفسهم... ما الذي أقوله! لخمس أو ستّ ساعات على أكثر تقدير!

4

في تلك الفترة اتخذتْ غريزتي قرارها القاطع ضدّ التمادي في الإذعان والمسايرة واشتباهي في هويّتي. أيّ نوعٍ من الحياة؛ الظروف القاسية والمرض والفقر ،كلها بدت لي أَحَبّ من ذلك «التنكّر للذّات»؛ السلوك الرخيص الذي وقعت فيه عن جهل وطيش شباب في البداية، ثمّ بقيت حبيسًا داخله في ما بعد بسبب الخمول، وبدعوى ما يُزعم أنّه «إحساس بالواجب». هنا هبّ لنجدتي في الوقت المناسب بالضبط، وبطريقة لن أقدر أبدًا على وصفها بالإعجاب الذي تستحقّ، ذلك الميراث السيّء الذي انتقل إليّ من أبي؛ ألا وهو التهيّؤ لموت مبكّر. سحبني المرض ببطء من ذلك المحيط: لقد وفّر عليّ كلّ قطيعة وكلّ خطوة عنيفة وصادمة. لم

أخسر في تلك الفترة أيّة رعاية، بل كسبت المزيد. منحني المرض في الآن ذاته الحقّ في تغيير كامل لكلّ عاداتي، كما سمح لي، بل أملى عليّ النسيان، ومنّ عليّ بـوجوب ملازمة الفراش وبالعطالة والانتظار والصبر... غير أنّ ذلك يعني التفكير!... لقد وضعتْ عيناي لوحدهما حدًّا للانغماس في الكتب، أي في الفيلولوجيا: نجوْت من «الكتاب»، ولسنوات عديدة لم أقرأ أيّ شيء؛ كان ذلك أكبر إحسان قمت به تجاه نفسي على الإطلاق!- ذاتي العميقة التي ظلّت طويلا شبه مطمورة، وشبه مندحرة إلى الصمت لكثرة ما كانت مرغمة على الاستماع إلى ذوات أخرى بدأت تستيقظ شيئًا فشيئًا، خجولة، غير واثقة؛ لكن هاهي تنطق من جديد! لم أتمتّع في حياتي كلّها بمثل ذلك القدر من السعادة التي كانت لديّ في أيّامي الأكثر سقمًا وأكثر آلامًا: على المرء أن يلقي نظرة على «الفجر» أو على «المسافر وظلّه» مثلا كي يدرك معنى تلك «العودة إلى نفسي»: إنّه الشكل الأرقى للمعافاة!... ومن صلبها خرجت المعافاة الأخرى.-

5

أهمّ ما جاء في «إنساني، مفرط في الإنسانيّة»، ذلك المعلم الذي يكرّس تربية ذاتية صارمة استطعت بموجبها أن أضع حدًّا لكلّ ما تسرّب إليّ من «ترّهات راقية» و«مثاليّة» و«أحاسيس نبيلة» وغيرها من الخنوثيّات، تمّت كتابته في سورّينتي Sorrente؛ ثمّ خُتم واتّخذ هيأته النهائيّة في بازل ذات شتاء في ظروف أسوأ بكثير من تلك التي عرفتها في سورّينتي. وفي الواقع إنّ بيتر غاست Peter Gast الذي كان يدرس بجامعة بازل أنذاك ويكنّ لي تعاطفا وودًّا كبيرين، هو

الذي يتحمّل مسؤوليّة هذا الكتاب. كنت أملي عليه معصوب الرّأس لشدّة آلام الصداع، وكان هو يكتب، ويصحّح أيضًا؛ لقد كان في الواقع هو الكاتب الحقيقيّ، بينما لم أكن سوى المؤلّف لا غير. وعندما وُضع الكتاب أخيرًا جاهزًا بين يديّ -الأمر الذي بدا مفاجأة كبرى لمريض مثلي- أرسلت، من ضمن ما أرسلت، نسختين إلى بايرويت أيضًا. وبمحض أعجوبة من تلك التي تتأتّى عن صدفة ذات مدلول وصلتني في الوقت نفسه نسخة أنيقة من مؤلّف بارسيفال مع إهداء من فاغنر «إلى صديقه العزيز فريدريش نيتشه. ريشارد فاغنر، المستشار الكنيسيّ». التقى الكتابان في الطريق، وكان لوقع لقائهما دويّ غامض في ذهني. ألم يكن لذلك اللقاء وقع قرقعة سيفين قد تصالبا؟... على أيّة حال فقد حصل لكلينا نفس هذا الإحساس؛ ثمّ كان صمت بيننا. في تلك الفترة صدرت الأعداد الأولى من «أوراق بايرويت»: أدركت عندئذ لأيّ شأن قد حان الوقت. - يا للغرابة! لقد أصبح فاغنر تقيًّا...

6

كيف كنت أفكّر في نفسي آنذاك (1876)، وبأيّ وثوق رهيب كنت ممسكا بمهمّتي وبما تتضمّنه من قيمة تاريخيّة كونيّة؛ كلّ ذلك يشهد به هذا الكتاب في مجمله، وبصفة أخصّ إحدى المقاطع ذات الدلالة الكبرى؛ إلاّ أنني هنا أيضًا، ووفقا لتحايلي الغريزي المعهود، قد تفاديت مرّة أخرى استعمال عبارة «أنا»، لأغمر بهالة من المجد، لا شوبنهاور ولافاغنر هذه المرّة، بل أحد أصدقائي، وهو الدكتور باول ري Paul Ree الممتاز - وكان من حسن الحظّ كائنًا شديد

اللباقة كي ما. . . .(*) بينما كان آخرون أقلّ لباقة؛ كنت قادرًا على تمييز الذين لا أمل فيهم من بين قرّائي - الأستاذ الألماني النموذجي مثلاً- من خلال كونهم يعتقدون أنّه بإمكانهم، استنادًا إلى هذا المقطع، تأويل الكتاب كلّه على أنّه أرقى أنواع الواقعيّة. . . وفي الحقيقة كان الكتاب يتضمّن اعتراضًا على خمس أو ستّ أطروحات لصديقي؛ وليعد القارئ إلى توطئة «جنيالوجيا الأخلاق» لمعاينة هذا الأمر. - وإليكم الآن المقطع المذكور: «ما هو القانون الأساسي الذي توصّل إليه أحد المفكّرين الأكثر جرأة وبرودة، وهو مؤلِّف كتاب «عن أصل المشاعر الأخلاقيّة » (أي: نيتشه، **اللاأخلاقي** الأوّل) وذلك بفضل تحليله الصارم والقاطع للسّلوكات البشريّة؟ «ليس الإنسان الأخلاقي أكثر قربًا من عالَم المعقولات من الإنسان المادّي، إذ أنّه ليس هنالك من عالَم معقولات. . .» هذا المبدأ الذي اكتسب طابعه الصلب والقاطع تحت وقع الضربات المطرقيّة للمعرفة التاريخيّة (أي: قلب كلّ القيم) قد يغدو ذات يوم، في زمن مستقبليّ ما -1890!- الفأس التي ستستخدم لاجتثاث «الحاجة الميتافيزيقيّة» للبشر من الجذور - إنْ لخير الإنسانيّة، أم للعنتها؟ من ترى بمستطاعه أن يجيب عن ذلك الآن؟ - غير أنّه في كلّ الأحوال مبدأ ستكون له أرقى النتائج؛ مثمر ومرعب في الآن ذاته، يتفحّص العالم بتلك النظرة المزدوجة التي تمتلكها كلّ العلوم الكبرى. . .

(*) فراغ في النصّ الأصلي.

الفجر

خواطر حول الأخلاق كفكرة مسبقة

1

بهذا الكتاب بدأت حملتي على الأخلاق. غير أنّه لا يفوح ولو بشيء قليل من رائحة بارود؛ بل سيجد المرء له روائح أخرى أذكى وألطف، شريطة أن يكون لديه شيء من رهافة في حاسّة الشمّ. ليس بآلة حربيّة، لا من الطراز الخفيف ولا من الثقيل: ولئن كان أثره سلبيًّا، فإنّ أسلوبه أبعد عن أن يكون كذلك؛ ذلك الأسلوب الذي يأتي التأثير من خلاله في هيأة خلاصة منطقيّة، لا في هيأة دويّ المدافع. أن ينتهي المرء من قراءة هذا الكتاب بإحساس من الرّيبة والحذر تجاه كلّ ما ظلّ إلى حدّ تلك اللحظة، تحت عنوان الأخلاق، محاطا بالاحترام وحتّى بالإجلال، فإنّ ذلك لا يتناقض البتّة مع كونه لا يحتوي على أيّة عبارة سلبيّة، ولا أيّ هجوم أو أيّة كلمة خبيثة؛ بل إنّه على العكس يبدو مستلقياً في الشمس ناعمًا وسعيدًا مثل حيوان مائيّ ينعم بالشمس ممدّدا بين الصخور. قد كنت

في حقيقة الأمر ذلك الحيوان البحريّ: وكلّ جملة من هذا الكتاب تقريبًا قد تمّ التفكير فيها واقتناصها داخل ذلك الازدحام الفوضويّ للصخور بالقرب من جنوا حيث كنت وحيدًا في خلوات سريّة مع البحر. وإلى اليوم، كلّما فتحتُ صدفة هذا الكتاب إلاّ وبدت لي كلّ جملة فيه تقريبًا شبيهة بطرف خيط أسحبُ به من الأعماق شيئًا ثمينًا بديعًا لا مثيل له: فوق جلدته تسري قشعريرة تحدثها الاختلاجات الطريّة للذكريات. إنّ الفنّ الذي ينطوي عليه هذا الكتاب ليس ممّا يمكن أن يستهان به؛ إنّه يقبض على الأشياء التي تتسلّل بخفّة وصمت، تلك اللحظات التي أدعوها بالسحليّات المقدّسة - لا بفظاعةِ ذلك الإله الغريقي الشابّ الذي كان يخِزُ السحليّات الصغيرة المسكينة بالحرْبة - لكن بطرف حادّ مع ذلك؛ بالقلم...

«هنالك أضواء فجريّة كثيرة لم تشعّ بعد» هذه المقولة الهنديّة منقوشة على عتبة هذا الكتاب. أين يبحث صاحب هذه المقولة عن هذا الصباح، ذلك الشفق الرّقيق الذي لم يُكتشف بعد والذي سيبدأ معه الصباح -بل العديد من الصباحات، عالم بأكمله من صباحات جديدة -؟ في قلب كلّ القيم، في التخلّص من كلّ القيم الأخلاقيّة، في الاستجابة الإثباتيّة والثقة بكلّ ما ظلّ إلى حدّ اللحظة ممنوعًا، محتقرًا وملعونًا. هذا الكتاب الإثباتيّ يغمر بنوره، وبحبّه ورقّته كلّ الأشياء السيّئة، ويعيد إليها «روحها» وراحة ضميرها وامتيازها-حقّها المقدّس في الوجود. لا تُهاجم الأخلاق في هذا الكتاب، إنّها فقط لم تعد تدخل في الاعتبار... ينتهي الكتاب بعبارة «أم ماذا؟» - إنّه الكتاب الوحيد الذي ينتهي بـ«أم ماذا ؟»...

2

إنّ مهمّتي التي تتمثّل في الإعداد للّحظة التي ستعود الإنسانيّة فيها إلى نفسها؛ ظهيرة عظمى تتمكّن فيها من النظر إلى الوراء والنظر بعيدًا إلى الأمام، وتتخلّص من سيطرة الصّدفة والقسّ، وتطرح لأوّل مرّة سؤاليْ لماذا؟ وكيف؟ بصفة كليّة شموليّة - هذه المهمّة هي النتيجة الضروريّة لرؤية مفادها أنّ الإنسانيّة ليست منقادة بنفسها إلى الطريق السويّ، ولا هي مسيّرة البتّة من قبل عناية إلهيّة، بل إنّها على العكس من ذلك قد فسحت المجال بمفاهيمها القِيَميّة المقدّسة لغرائز النفي والفساد وغريزة الانحطاط كي تمارس سيادتها (عليها). تكتسي مسألة أصل القيم الأخلاقيّة أهمّية من درجة أولى بالنسبة لي، لأنّه عليها يتوقّف مستقبل الإنسانيّة.

إنّ القول بضرورة الاعتقاد بأنّ كلّ شيء مسيّر بيد حكيمة، وأنّ كتابًا محدّدًا، الإنجيل، بمستطاعه أن يمنح طمأنينة نهائيَّة بشأن التّسيير الإلهي والحكمة الربّانيّة، يعني، مترجمًا إلى لغة الواقع، إرادة طمس الحقيقة التي تشهد بواقع معاكس بائس يبعث على الشفقة، ألا وهو أنّ الإنسانيّة ظلّت إلى حدّ اليوم مسيّرة بأسوأ ما يوجد من الأيدي ومحكومة من قبل الخاسرين والمحتالين المتعطّشين للانتقام، و«القدّيسين» المزعومين؛ أولئك المفترين على الحياة والإنسان. إنّ الدليل القاطع على أنّ القسّ (بما في ذلك القساوسة المقنّعون؛ أي الفلاسفة) قد غدا سيّدًا، لا داخل حدود طائفة دينيّة محدّدة فحسب، بل على العالم بصفة عامّة، وأنّ أخلاق الانحطاط وإرادة النهاية قد غدت الأخلاق في حدّ ذاتها، هذا الدليل

يوجد في ذلك الاعتبار المطلق الذي يحظى به اللاأنانيّون، والعداوة التي يجابه بها الأنانيّون. ومن لا يشاطرني الرأي في هذه النقطة بالذات فهو مصاب...

لكنّ العالم كلّه لا يشاطرني الرأي!...

بالنسبة للعالِم الفزيولوجي لا يوجد أيّ شكّ حول حقيقة هذا التناقض القيَمي. عندما يتراخى أدنى عضو من مجمل الجسد، ولو بدرجة دنيا، ويتخلّى عن حماية حفظ ذاته وتأمين طاقاته الحيويّة و«أنانيّته» بوثوق تامّ، يتداعى لذلك الكلُّ. في مثل هذه الحالة يأمر الفزيولوجي ببتر العضو المتداعي، ويرفض أيّ تضامن مع المنحطّ؛ إنّه أبعد ما يكون عن الشفقة تجاهه. لكنّ القسّ يريد بالتحديد انحطاط الكلّ؛ الإنسانيّة بكلّيتها، لذلك هو يحفظ العنصر المتفكّك؛ بمثل هذا الثمن تتسنّى له السيطرة عليها...

أيّ معنى تحمل هذه المفاهيم الكاذبة، المفاهيم الرافدة للأخلاق؛ «النفس» ،«الروح»، «الإرادة الحرّة»، «الله»، إن لم يكن التدمير الفزيولوجي للإنسانيّة؟... عندما يعمد المرء إلى تحويل وجهةٍ جدّيةٍ حفظ النفس وتنمية القوّة البدنيّة؛ **يعني طاقة الحياة**، وعندما يجعل من فقر الدّم مثالاً، ومن تحقير الجسد «خلاص الروح»، ما الذي يعني هذا إن لم يكن **وصفةً للانحطاط**؟ إنّ فقدان الثقل الجسدي، ومناقضة الغرائز الطبيعيّة؛ أي نكران الذات في كلمة واحدة - ذلك هو ما ظلّ يسمّى إلى حدّ الآن بـ**الأخلاق**...

في كتاب «الفجر» شرعت لأوّل مرّة في مكافحة أخلاق الاستلاب الذاتي.

المعرفة المرحة
(La gaya scienza)

«الفجر» كتاب إثباتي، عميق، لكنّه مشرق وودود. تلك الصفات ذاتها تنطبق أيضًا، ولكن بدرجة أرقى على «المعرفة المرحة» «la gaya scienza»: في كلّ جملة منه تقريبًا يسير العمق والنزق يدًا بيد وفي جوّ من الودّ الرقيق. هنالك مقطع أعبّر فيه عن امتناني لأروع شهر يناير عشته في حياتي -الكتاب كلّه هبة ذلك الشهر- ذلك المقطع ينبئ بما فيه الكفاية عن ذلك العمق الذي تحوّلت داخله «المعرفة» إلى مرح:

أنت الذي، بحزبةٍ من لهب
جعلت روحي فتاتًا من الجليد؛
فائرة تندفع الآن نحو محيط
آمالها الأكثر سموًا:
أكثر وضوحًا في كلّ آونة، وفي كلّ آونة أكثر عافية،
حرّة في غمرة الإكراه المستحَبّ:

كذا هي تبارك معجزاتك؛
يناير يا أجمل الشهور!

من سيمكنه أن يشكّ في هذا الذي أسمّيه بـ«الآمال الأكثر سموًّا»، بعد أن يشاهد في نهاية الكتاب الرابع طلوع الكلمات الأولى لزرادشت متوهّجة ببريق جمالها الماسيّ؟ - أو من يقرأ في نهاية الكتاب الثالث تلك الجمل الغرانيتيّة التي يتشكّل من خلالها لأوّل مرّة مصير الأزمنة كلّها؟

أناشيد الأمير «فوغلفراي»(*) (المارق ،الخارج عن القانون) التي نُظمت في معظمها بصقليّة، تذكّر بوضوح معبّر بالمفهوم البروفانسي (نسبة إلى إقليم البروفانس من جنوب فرنسا) لـ«المعرفة المرحة» (gaya scienza)، تلك الوحدة التي يمتزج فيها المغنّي بـالفارس والعقل الحرّ، والتي تميّز تلك الثقافة البروفانساليّة القديمة عن بقيّة الثقافات ذات الطابع الملتبَس. إنّ آخر قصيدة على وجه الخصوص، «إلى ريح الشمال» (الميسترال)؛ ذلك النشيد المفعم بالبهجة الذي، وبعد إذنكم، يرقص فوق الأخلاق، لهو عين البروفانسيّة.-

(*) Vogelfrei تعني حرفيًّا: الطائر الحرّ، أو الطليق، واصطلاحاً: المارق والخارج عن سلطة القانون. يستعمل نيتشه هذه العبارة التي تدلّ في اللغة المتداولة على شخصيّة سلبيّة للتدليل على العقل الحرّ، أو المنعتق ،ضمن فلسفة «قلب كلّ القيم»، من كلّ قيود المواضعات الأخلاقيّة والدينيّة والمعرفيّة المتداولة. - المترجم

هكذا تكلّم زرادشت

كتاب للجميع ولغير احد

1

أروي الآن قصّة زرادشت. تعود الفكرة الأساسيّة لهذا المؤلَّف؛ فكرة العود الأبديّ، وهي أرقى ما يمكن التوصّل إليه من أشكال الإثبات، إلى صائفة (أغسطس) 1881. طرحْتُ تلك الفكرة آنذاك على ورقة تحت عنوان: «6000 قدمًا في ما وراء الإنسان والزّمن». كنت يومها أتمشّى داخل الغابة على ضفاف بحيرة سيلفابلانا Silvaplana؛ وعلى مقربة من قالب صخريّ هائل قائم على شكل هرم غير بعيد من سورلاي Surlei توقّفت للاستراحة. هنالك جاءتني تلك الفكرة. وإذا ما عدت بضعة أشهر إلى الوراء، انطلاقًا من ذلك اليوم، سأجد كعلامة سابقة على هذا الحدث تغيّرًا فجئيًّا عميقًا وحاسمًا قد طرأ على ذوقي، في مجال الموسيقى بصفة خاصّة. ولعلّه بإمكان المرء أن يضع مجمل زرادشت داخل خانة الموسيقى؛ ومن المؤكّد أنّ ولادة جديدة لفنّ الاستماع لديّ كانت الشرط اللازم لنشأة هذا الكتاب. في محطّة مياه معدنيّة بالقرب من فيسانس

Vicence بركوارا Recoara حيث كنت أقضّي ربيع سنة 1881، اكتشفت بمعيّة المايسترو والصديق بيتر غاست - الذي عرف «ولادة جديدة» هو الأخر - أنّ طائر فينيق الموسيقى قد مرّ حائمًا بالقرب منّا بأجنحة أكثر خفّة وبريقًا من ذي قبل. أمّا إذا ما قمت بالعدّ في الاتّجاه المعاكس؛ أي انطلاقًا من اليوم ذاته حتّى يوم الولادة الفجئيّة التي تمّت في ظروف غير متوقّعة في شهر فبراير من سنة 1883 (لقد وقع إنهاء الجزء الاختتاميّ؛ ذلك الذي أُورد بعضًا من جمله في توطئة هذا الكتاب، بالضبط في الساعة المقدّسة التي مات فيها ريشارد فاغنر بفنيسيا) سأحصل إذًا على ثمانية عشر شهرًا من الحمْل. هذا العدد؛ الثمانية عشر دون زيادة ولا نقصان، من شأنه أن يدفع إلى التفكير، لدى البوذيّين على الأقلّ، بأنّني في الحقيقة من إناث الفيَلة. وفي الفترة الواقعة ما بين هذين الطرفين جاء كتاب «المعرفة المرحة» الذي كان يحمل مئة علامة على اقتراب مجيء شيء لا مثيل له؛ بل إنّه يقدّم أيضًا بداية زرادشت إذ يسلّمنا في الجزء ما قبل الأخير من الكتاب الرابع الفكرة الأساسيّة لزرادشت. وإلى هذه الفترة بالذّات تعود أيضًا مقطوعة «أغنية إلى الحياة» (كورس مختلط وأوركسترا) التي صدرت نوتتها قبل سنتين لدى فريتش E.W.Fritzsch بلايبزيخ؛ مؤشّر ليس دون أهمّية بالتأكيد على الوضع خلال تلك السنة، حيث كان الشعور الإثباتيّ بامتياز، أو ما أسمّيه بالشعور المأساوي قد بلغ ذروته لديّ آنذاك. ستنشد هذه المقطوعة إحياء لذكراي في ما بعد. ولا بدّ أن أقولها بكلّ وضوح، إذ هنالك سوء تفاهم يجري في الأذهان، أنّ النصّ ليس لي أنا، بل هو نتيجة إلهام بديع لفتاة روسيّة كنت في علاقة صداقة معها في ذلك

الحين، وهي الآنسة لو فون سالومي. وإنّ من يستطيع أن يلتقط المعنى العميق للكلمات الأخيرة لهذه القصيدة، سيمكنه أن يدرك لماذا أكنّ له كلّ هذا الإعجاب والتبجيل: إنّها كلمات ذات عظمة. الوجع فيها لا يلعب دور اعتراض على الحياة: «إن لم يعد لديك من سعادة تمنحني إيّاها، إذًا! فلديك بعد آلامك...» ولعلّ لموسيقاي في هذا الموضع عظمتها أيضًا (النوتة الأخيرة لـ Oboe *cis*(*) وليست *c* كما ورد ذلك لمجرّد خطإ مطبعي).

قضّيت الشتاء الموالي في خليج راباللّو الزاهي والهادئ؛ ذلك التجويف المائي المتوغّل مابين جبال شيافاري ورأس بورتو فينو بالقرب من جنوا. لم تكن صحّتي على ما يرام، وكان الشتاء باردًا وممطرًا بصفة مشطّة، والمَضيف الواقع مباشرة على الشاطئ، بحيث يصبح النوم مستحيلا بسبب هيجان البحر، يوفّر بالضبط، على جميع المستويات تقريبًا، عكس ما كان مستحبًّا بالنسبة لراحتي. وبالرغم من ذلك كلّه، وكما لو أنّ الأمر يتعلّق هنا بإثبات مقولة أنّ كلّ ما هو مهمّ وحاسم إنّما ينشأ «رغمًا» عن الظروف، فإنّه في ظلّ ذلك الشتاء وتلك الظروف القاسية نشأ زرادشت.

في الضُحى كنت أصعد الطريق الرائعة جنوبًا باتّجاه زواغلي Zoagli محاذيا لغابات الصنوبر، ومطلاً من هناك على البحر يمتدّ أمامي حتّى الأفق. وفي العشيّة أتمشّى بمحاذاة الخليج من سانتا مارغريتا حتّى ما بعد بورتو فينو. لقد ازداد ذلك المكان ومناظره اقترابًا من قلبي بسبب الحبّ الكبير الذي كان يكنّه إليها القيصر

(*) في النسخ الأخرى: النوتة الأخيرة لـ A Klarinette cis

فريدريش الثالث؛ ولقد شاءت الصدف أن أكون بمحض صدفة هناك (على ذلك الساحل) خريف سنة 1886، عندما قدم لزيارة عالم السعادة المنسيّ ذاك لآخر مرّة. فوق هذين الطريقين أتاني الجزء الأوّل من زرادشت بكامله، وبخاصّة زرادشت نفسه كشخصيّة- نموذج؛ وبعبارة أصحّ هبط عليّ زرادشت...

2

كي يتسنّى فهم هذا النموذج، على المرء أن يتبيّن الشّرط الفيزيولوجيّ الأساسيّ لكيانه: وهو ما أسمّيه بالعافية الكبرى. ولن أستطيع أن أشرح هذا المفهوم بطريقة أفضل وبطريقة شخصيّة ممّا فعلت سالفًا في إحدى المقاطع الختاميّة لكتاب «المعرفة المرحة»:

«نحن (الرجال) الجدد الذين لا اسم لنا ولا أحد يقدر على فهمنا» - يقول هذا المقطع- «نحن المولودون قبل الأوان لمستقبل لم يقم الدليل على وجوده بعد، نحتاج إلى وسائل جديدة من أجل أهدافنا الجديدة؛ يعني ذلك إلى صحّة جديدة، أكثر صلابة، أكثر دهاء، أكثر متانة، أكثر جسارة، وأكثر مرحًا من كلّ ما عرفت الصحّة إلى حدّ الآن. من كانت روحه متعطّشة لاختبار مجمل ما عُرف إلى حدّ الساعة من قيم ورغبات، وإلى استطلاع كلّ نقطة من سواحل هذا «المتوسّط» الرائع؛ ومن يريد أن يَخبَر من خلال مغامرة التجربة الشخصيّة مشاعر الفاتح ومكتشف المُثل، وكذلك الفنّان والقدّيس والمشرِّع والحكيم والعالم والورع والراهب المنعزل من ذلك الطراز القديم؛ من يريد معرفة كلّ هذه الأشياء لا بدّ له قبل كلّ شيء أن

يكون متمتّعا بعافية كبرى؛ عافية ليس على المرء أن يجدها في نفسه فحسب، بل أن يكتسبها، وأن يظلّ مجبرًا على مواصلة اكتسابها على الدّوام، ذلك أنّه على الدّوام ينفقها وعلى الدوام سيظلّ مضطرًّا لإنفاقها. . .

والآن، وبعد أن تجوّلنا كثيرًا هكذا، نحن معشر عنْقريطات المُثُل، الأكثر شجاعة ممّا تتطلّب الفطنة والحذر على أغلب الظنّ، نحن، ضحايا حوادث الغرق والمتضرّرون في أغلب الأحيان، لكنّنا، وكما قلنا، الأكثر عافية ممّا يمكن أن يُسمح لنا به، معافون بصفة خطيرة، ومجدّدون لعافيتنا على الدوام، يبدو كما لو أنّه - مكافأةً لنا على جهودنا هذه - هنالك أمامنا أرض لم تُكتشف بعد، ولا ارتاد تخومها مسافر؛ بلاد في ما وراء كلّ البلدان وكلّ مخابئ المُثل المعروفة إلى حدّ الآن، عالم ثريّ بكلّ ما هو جميل وغريب ومريب ومخيف وقدسيّ ممّا يجعل فضولنا وكذلك لهفتنا على الامتلاك تخرج عن طورها - أوه، حتّى لأنّه لم يعد هنالك من شيء يمكن أن يُشبعنا الآن!. . . كيف يمكننا بعد مثل هذه المشاهدات، ومع كلّ هذا الجوع المتحرّق إلى المعرفة والوعي، أن نكتفي بإنسان الزمن الرّاهن؟ إنّه لأمر سيّئ بما فيه الكفاية، لكن لا مفرّ من ذلك، أن نغدو لا ننظر إلى أهداف هذا الإنسان وآماله الأكثر سموًّا إلاّ ونحن نمسك بعسر وعناء بجدّيتنا، بل لعلّنا لم نعد ننظر إليها أصلاً. . . مَثَل أعلى آخر يركض الآن أمامنا؛ مَثل بديع، مُغْرٍ ومليء مخاطر، مثل لا نرغب في إقناع أحد به، لأنّنا لا نمنح الحقّ فيه لأي أحد بسهولة: إنّه مثل أعلى لعقل ساذج بريء؛ بمعنى عقل يتناول بالعبث، بصفة عفويّة وبدافع زخم من الطاقة والمقدرة، كلّ

ما ظلّ إلى حدّ الساعة يدعى مقدّسًا خيرًا، أمرا ساميًا وإلهيًا؛ عقل ينظر إلى الأشياء السامية التي يتخذها الشعب مقياسًا متّفقًا على صلوحيّته على أنّها خطر، وتدهور واتّضاع، وفي أحسن الحالات يرى إليها كاستراحة وعماء وإهمال مؤقّت للذّات؛ مثل أعلى لنعيم وتعطُّف إنساني-ما فوق إنسانيٍّ سيبدو في أغلب الأحيان لا إنسانيًا عندما يقف ،على سبيل المثال، تجاه كلّ ما ظلّ يعدّ جديًا على وجه الأرض وكلّ ما كان يبدو احتفاليّ الهيأة والعبارة والنغمة والنظرة والأخلاق والمهمّة، مثل محاكاة ساخرة لها، باروديا حيّة وغير مقصودة - مثَل قد يكون، بالرغم من هذا كلّه، منطلقًا للجديّة الكبرى؛ معه يُطرح السؤال الجوهري للمرّة الأولى، وينقلب مصير الروح، وتتحرك عقارب الساعة، وتبدأ التراجيديا. . .

3

هل لأحد في نهاية القرن التاسع عشر فكرة واضحة عمّا كان شعراء العصور الكبرى يسمّونه بالإلهام؟ إن لا، فسأشرح هنا هذا الأمر - يكفي أن يكون المرء حاملا بعد لشيء ولو ضئيل من الاعتقاد الخرافي كي لا يستطيع الامتناع عن الاعتقاد بأنّه مجرّد مُثول، مجرّد قناة صوتيّة، مجرّد وسيط Medium لقوى فوقبشريّة عظمى. إنّ عبارة الوحي بما تعنيه من أنّ شيئًا ما يغدو فجأة مرئيًا ومسموعا بدقّة ووثوق يستعصيان على الوصف؛ شيء يهزّنا ويرجّنا في الأعماق، لهي التعبير البسيط عن واقع الأمر. يسمع المرء، ولا يبحث. يتسلّم، ولا يسأل من هو المانح. مثل التماعة برق تومض

الفكرة بموجب ضرورة، واثقة لا تعرف التردّد - لم يكن لي أبدًا أن أختار. نشوة عارمة ينفرج توتّرها الهائل في فيض من الدموع، نسق الحركة فيها مندفع كالسيل حينا، وبطيء حينًا آخر من دون أيّ تحكّم إراديّ؛ حالة غيبوبة، لكن مع بقاء الإدراك الواضح لما لا يحصى من القشعريرات الناعمة والارتعاشات التي تتخلّل الجسد من قمّة الرأس حتّى أخمص القدمين؛ غمرة سعادة حيث أشدّ أنواع الألم والقتامة لا تتراءى داخلها كنقائض، بل كشيء مناسب ومستدعى، كتلوينة ضروريّة داخل هذا الدفق النورانيّ. غريزة إيقاع تحتضن عالما بأسره من الأشكال - إنّ الحجم، أو الحاجة إلى إيقاع رحب لهي تقريبًا مقياس لمدى عنف الإلهام، وضرب من الموازنة والتعويض عن حدّة الضغط والتوتر اللذين يحدثهما عنف الإلهام. يحدث كلّ هذا بصفة لا إراديّة مطلقة، لكن بما يشبه إعصارًا من الشعور بالحريّة، وبالسيادة التامّة، والقدرة والألوهيّة... وأغرب ما في ذلك هي تلك الحتميّة التي تفرض بها الصورة والاستعارة نفسها؛ يفقد المرء كلّ سيطرة ذهنيّة على كنه الصورة والاستعارة؛ إنها تمنح نفسها هكذا مثل التعبير الأكثر طبيعيّة، الأكثر قربًا، والأكثر مناسبة وبساطة. إنّه ليبدو فعلا -كي نتذكّر عبارة لزرادشت - كما لو أنّ الأشياء هي التي تسعى إلينا مانحة نفسها للتحوّل إلى رموز؛ «تهرع الأشياء كلّها إلى خطابك متحنّنة زلفى، تتملّقك لأنّها تبتغي التسلّق على كتفيك. على صهوة كلّ رمز تمضي إلى كلّ حقيقة. هنا تنفتح أمامك كلّ حروف الوجود وخزائن الكلمة: كلّ كيان يريد أن يصير حرفًا، وكلّ صيرورة تريد أن تتعلمّ الكلام عن طريقك -». تلك هي تجربتي (أنا) مع الإلهام، ولا أشكّ في أنّه ينبغي الرجوع آلافًا من

السنين إلى الوراء كي نجد أحدًا يحقّ له أن يقول لي: «تلك هي تجربتي أيضًا». -

4

لازمت فراش المرض لأسابيع متتالية في جنوا. تلا ذلك ربيع مفعم بالكآبة في روما حيث كان عليّ أن أتحمّل الحياة؛ ولم يكن ذلك بالأمر اليسير. وفي الحقيقة كنت منزعجًا أيّما انزعاج من ذلك المكان الذي لا يليق البتّة بشاعر زرادشت والذي لم أختر الإقامة فيه طواعية. أردت الفرار إلى أكيلا *Aquila*، ذلك الموضع النقيض لروما والذي تمّ تأسيسه من منطلق المعاداة لروما، مثل ذلك الموضع الذي سَؤُوَسّسه تخليدًا لذكرى واحد ملحد ومعاد للكنيسة *comme il faut* كما ينبغي، واحد من أقرب المقرّبين إليّ؛ فريدريش الثاني قيصر هوهنشتاوفن العظيم. غير أنّ قدرًا ما كان يتحكّم في مسيرة الأشياء: كان عليّ ان أعود إلى روما. وفي النهاية اكتفيت بساحة *Piazza Barberini* بعد أن أرهقتني جهود البحث عن مكان مضادّ للمسيحيّة. وإنّني لأخشى أن أكون، بدافع محاولة تفادي الروائح الكريهة قدر الإمكان، قد سألت ذات يوم في *Palazzo del Quirinale* ذاته إذا ما كانت هنالك غرفة هادئة لفيلسوف.

في عريشة معلّقة فوق الساحة المذكورة أشرف منها على كامل مدينة روما، وأصغي إلى هدير نافورة الـ*Fontana* الصاعد من تحت، ألّفت ذلك النشيد الأكثر توحّدًا وعزلة من بين كلّ ما أُنشدَ؛ «أغنية إلى الليل»، وفي تلك الفترة كانت تحوم حولي على الدّوام نغمة

ذات كآبة تربو على الوصف، وقد وجدت لها لازمة في هذه العبارة «ميّت من فرط الخلود». . .

وعندما عدت في الصائفة إلى ذلك الموضع المقدّس الذي التمعت لديّ فيه الومضة الأولى لفكرة زرادشت، عثرت على الجزء الثاني من الكتاب. عشرة أيّام كانت كافية لذلك، وأنا على أيّة حال لم أحتج لأكثر منها سواء لكتابة الجزء الأوّل أو الجزء الثالث والأخير من زرادشت.

في الشتاء الموالي وتحت سماء السكينة الشتويّة لمدينة نيس التي أشعّت على حياتي لأوّل مرّة آنذاك، وجدت الجزء الثالث - وانتهيت.

سنة بالكاد كانت كافية لمجمل العمل.

كثير من الأماكن الخفيّة والمرتفعات من تلك المشاهد الطبيعيّة بنيس ظلّت مقترنة في ذاكرتي بلحظات رائعة لا تنسى؛ وإنّ ذلك المقطع الحاسم الذي يحمل عنوان «عن الألواح القديمة والجديدة» قد تمّ تأليفه أثناء عمليّة صعود مضنية من محطّة المدينة إلى Eza تلك القرية الموريسكيّة الرّائعة المعلّقة فوق الصخور - إنّ نشاط العضلات لديّ يكون دومًا في قمّة حيويّته عندما تكون طاقاتي الإبداعيّة في أوج تدفّقها؛ إنّها نشوة الجسد، ولندع «الروح» خارج اللعبة. . . غالبًا ما رآني الناس أرقص آنذاك، وكنت قادرًا على التمشّي لسبع وثماني ساعات فوق الجبال دون أدنى إحساس بالتعب؛ أنام جيّدًا وأضحك كثيرًا، وكنت على غاية من المتانة والصبر.

5

بقطع النظر عن فواصل الأيام العشرة للعمل كانت تلك السنوات، وبصفة أخصّ السنوات التي عقبت زرادشت سنوات بؤس لا مثيل لها. فالمرء يدفع الثمن غاليا من أجل الخلود؛ إنّه يموت العديد من المرّات وهو على قيد الحياة. هنالك شيء أسمّيه ضغينة العظمة: كلّ ما هو عظيم، أثرًا كان أم عملاً ينقلب حتمًا على مبدعه بعد إنجازه. ولكونه أنجزه يصبح صاحب العمل مستنفدًا ضعيفًا، ويغدو غير قادر على تحمّل عمله، ولا حتّى على النظر إليه وجهًا لوجه. أن يفرغ المرء من عمل، ما كان ليحقّ له أن يريده، عمل معقود عليه مصير الإنسانيّة، وأن يكون عليه منذ تلك اللحظة أن يتحمّل وزره!... إنّه أمر يسحق المرء تقريبًا...- ضغينة العظَمة!... ثمّ هنالك أيضًا ذلك الصّمت المفزع الذي يصغي إليه الإنسان من حوله. إنّ للوحدة سبعة جلود، ولا شيء يستطيع أن يخترقها. يمضي المرء إلى الناس، ويحيّي أصدقاء؛ وإذا هو قفرٌ جديد، ولا نظرة ترحاب. وفي أحسن الأحوال نوع من الحنق. لقد تعرّضت لذلك الحنق، وبدرجات متفاوتة، من قبل كلّ من كان قريبًا منّي تقريبًا. يبدو أنّه ليس هناك ما يثير الاستياء أكثر من أن ينبّه المرء فجأة إلى وجود مسافة فاصلة، ذلك أنّ الطبائع النبيلة التي لا تستطيع أن تعيش دون أن تقدّر venerer نادرة جدًّا.

هناك أمر ثالث أيضًا وهو تلك الحساسيّة الجلديّة العبثيّة ضدّ القرصات الصغيرة؛ ضرب من العجز أمام كلّ ما هو صغير. يبدو لي أن هذا الأمر مرتبط بالتبديد المهول للقوى الدّفاعيّة الذي يشترطه كلّ

عمل مبدع؛ كلّ عمل قادم من الأصقاع الأكثر ذاتيّة والأكثر حميميّة وعمقًا، وهو ما يُنهك القدرات الدفاعيّة الصغرى إذ ينقطع عنها كلّ تموين بالطاقة. ويمكنني أن أجرؤ على التأكيد أيضًا بأنّ المرء يصاب بعسر الهضم وعدم الرغبة في الحركة، ويكون عرضة لحساسيّة مفرطة تجاه البرد، ولشعور بعدم الثقة أيضًا؛ عدم الثقة الذي هو في الكثير من الحالات مجرّد خطأ في تشخيص الأسباب لا غير. في حال شبيهة بهذه استشعرت ذات مرّة اقتراب قطيع من البقر، فقط من خلال استعادتي لمشاعر أكثر رقّة وإنسانيّة وذلك قبل أن ألمح ذلك القطيع بعيني؛ إنّ في ذلك دفئًا...

6

لهذا العمل مكانته الخاصّة. لندع الشعراء جانبًا، وسنرى كما يبدو لي أنه لم يُبدع شيء على الإطلاق بمثل هذا الزّخم من الطاقة المتدفّقة من قبل. قد غدا مفهومي للديونيزي هنا عملا عظيمًا مقارنة به ستبدو كلّ الأعمال البشريّة الأخرى بائسة ومحدودة. أن يكون من غير المتيسّر لواحد يدعى غوته، أو شكسبير أن يتنفّس لحظة واحدة من هواء هذه الصبوة وهذه الأعالي الهائلة ،وأن يغدو دانتي مقارنة بزرادشت مجرّد مؤمن وليس واحدًا مبدعًا للحقيقة، وعقلا يقود العالم - قدَرًا؛ وأنّ الشعراء قساوسة Veda فيدا(*)، وهم ليسوا جديرين حتّى بخلع حذاء واحد من مقام زرادشت؛ فذلك هو أقلّ ما

(*) القساوسة العاكفون على قراءة وتفسير العلوم التقليديّة الستّة للفيدا (أو الفيدانغا)، وهي النصوص المقدّسة في الديانة الهنديّة القديمة. -المترجم -.

يمكن أن يقال، وليس هنالك على أيّة حال من عبارة بوسعها أن تخبر عن مدى المسافة الشاسعة والوحدة اللازورديّة التي يعيش داخلها هذا الأثر.

لزرادشت الحقّ الخالد في أن يقول: «إنّني أرسم دوائر من حولي وأضرب حدودًا مقدّسة؛ وإنّ عدد الذين يصعدون معي إلى قمم أكثر فأكثر علوًّا لفي تناقص مطّرد؛ إنّني أرفع سلسلة من الجبال أكثر فأكثر قداسة». ولو اجتمعت فضائل وعقول العظماء كلّها لما استطاعت، جميعها معًا، أن تأتي بخطبة واحدة من خطب زرادشت. هائل هو السلّم الذي يتنقّل فوقه صعودًا وانحدارًا! لقد رأى أبعد، وأراد أبعد ومضى أبعد من أيّ إنسان. إنّه يناقض بكلّ كلمة يقولها هذا الذي هو الأكثر إثباتًا من بين العقول كلّها؛ لديه تترابط كلّ المتناقضات وتتعاضد من أجل وحدة جديدة. أسمى القوى وأوضعها في الطبيعة البشريّة، والأشياء الأكثر عذوبة وخفّة، والأكثر فظاعة تتدفّق كلّها بوثوق خالد من ذات النبع.

لم يكن لأحد من قبل أن يعرف ما السموّ، وما العمق، وأقلّ من ذلك ما الحقيقة. وليست هناك لحظة واحدة من هذا التجلّي قد سبق لأحد من العظماء أن استشفّها. ليست هنالك أيّة حكمة، ولا أيّ سبر لأغوار النفس ولا أيّ فنّ خطابة قبل زرادشت: إنّ أقرب الأشياء وأكثرها عاديّة تنطق هنا بأشياء بديعة خارقة. القول يخفق صبوةً، والخطابة غدت موسيقى؛ صواعق تُقذف باتجاه أفق مستقبليّة ظلّت مجهولة حتّى تلك اللحظة. وإنّ أقوى ما عُرف من الطاقة التخييليّة حتّى الساعة لتبدو فقيرة شاحبة ومجرّد لهو صبيانيّ أمام عودة اللغة إلى هذه الطبيعة التصويريّة. - لِنرَ إلى زرادشت كيف

ينزل من عليائه ويخاطب كلّ واحد بأطيب الكلمات! وكيف يلمس بيد رقيقة حتّى أكبر الناس مناقضة له - القساوسة- وكيف يتألّم معهم لألمهم، ومن أنفسهم! - هنا يجري في كلّ لحظة تخطّي الإنسان، وهنا أصبح مفهوم الإنسان الأرقى الحقيقة العظمى؛ وعلى مسافة لا متناهية من تحت يقبع كلّ ما كان يعتبر عظيمًا لدى الإنسان حتّى تلك اللحظة. كلّ ما يخلد إلى السكينة، كلّ الأقدام الخفيفة، والحضور المطلق للشرّ والغرور، وكلّ ما يمكن أن يكون من خصائص النموذج الزرادشتي، لم تكن أبدًا ممّا يمكن أن يُتصوّر كعنصر جوهريّ في العظمة. داخل هذا الحيّز الفضائيّ بالذّات، وضمن هذا العبور اليسير بين المتناقضات، يشعر زرادشت بنفسه مثل **النوع الأرقى من بين كلّ الكائنات**؛ وإذا ما استمعنا إليه كيف يعرّف هذه الحالة فسيغنينا ذلك عن جهد البحث عن صورة لتجسيد هذا الأمر:

«النفس التي تملك السلّم الأطول، والتي تستطيع النزول إلى أعمق الأعماق، النفس الأكثر رحابة، والتي تستطيع أن تركض داخل ذاتها، وتهيم وتتيه حتّى أبعد الحدود، تلك الأكثر حتميّة، والتي تقذف بنفسها بشهيّة بين أحضان الصدفة، النفس الكائنة التي تريد نفسها في الصيرورة، المالكة التي تريد نفسها في الرّغبة، النفس التي تفرّ من ذاتها، والتي تدرك ذاتها عند أكثر الدوائر اتساعًا، النفس الأكثر حكمة، والتي يناغيها الجنون بأعذب الكلمات، النفس التي تعشق ذاتها أكثر من أيّ شيء، وفيها تجد الأشياء كلّها صعودها وهبوطها، مدّها وجزرها » - **لكن هذه هي فكرة ديونيزوس نفسها**.
- إلى الفكرة ذاتها يقودنا اعتبار آخر أيضًا. إنّ الإشكال السيكولوجي

في النموذج الزرادشتي يتمثّل في الآتي: كيف يمكن لواحد مثله، يواجه بالنفي قولا وفعلا كلّ ما ظلّ يثبته الجميع حتّى الساعة، أن يكون مع ذلك النقيض لكلّ عقل سلبيّ؛ وكيف لعقل يحمل عبء أثقل مصير ومهمّةً بحجم قدَر أن يكون مع ذلك أكثر العقول خفّة وأريحيّة؟ -إنّ زرادشت راقص -: كيف يمكنه، هو الذي يملك النظرة الأكثر قسوة، والأكثر فظاعة تجاه الواقع، أن لا يكون له رغم ذلك أيّ اعتراض على الوجود، ولا حتّى على عوده الأبدي، بل وأكثر من ذلك أن يجد سببا لأن يكون الإثباتَ الأبديّ بعينه لكلّ أشياء العالم؛ تلك الـ«نعم وآمين اللامحدودة الهائلة»... «في كلّ غور سحيق أحمل معي إثباتي المبارِك.»... **لكن هذه هي فكرة ديونيزوس مرّة أخرى!**

7

بأيّة لغة سيتكلّم هذا العقل عندما يتحدّث إلى نفسه؟ لغة الدثيرامبوس (النشيد المدائحي). إنّني مبتدع الدثيرامبوس. ولنستمع إلى زرادشت كيف يتحدّث إلى نفسه «**قبل طلوع الشمس**»*؛ مثل هذه السعادة الزبرجديّة والرقّة القدسيّة لم ترد على لسان قبلي؛ حتّى الكآبة الأكثر عمقًا لديونيزوس تتحوّل هي أيضًا إلى دثيرامبوس. أسوق لكم دليلا على ذلك «أغنية الليل»، تلك الشكوى الخالدة لروح حكم عليها امتلاؤها بالنور وطبيعتها الشمسيّة بأن لا تحبّ.

إنّه الليل: هي ذي الينابيع الفيّاضة ترفع صوتها في حديث مسموع. وروحي هي أيضًا نبع فيّاض.

إنّه الليل: هي ذي أغاني المحبّين تستيقظ الآن. وروحي هي أيضًا أغنية محبّ.

شيء في داخلي لم يسكّن ولا شيء يسكّنه يريد أن يرفع صوته. ظمأ للحبّ يسكنني، يتكلّم هو أيضًا لغة الحبّ.

نور أنا: آه ليتني كنت ليلاً! لكن تلك هي وحدتي، أن أكون متمنطقًا بحزام من نور.

آه، لو كنت قاتمًا وليليًّا، لكم كنت سأكرع من ثدي النّور!

وأنت أيضًا أيّتها الكواكب الصغيرة الملتمعة وحباحب السماء البرّاقة ، لكم كنت أودّ لو أنني أباركك، ويغمرني الفرح بهبتك الضوئيّة.

لكنّني أحيا داخل نوري الخاصّ، وأمتصّ ألسنة اللهب الطالعة منّي.

لا أعرف سعادة المتناولين، ولكم حلمت بأنّ السرقة لا بدّ أن تكون أكثر متعة من الأخذ.

تلك هي فاقتي؛ أن لا تكفّ يداي أبدًا عن العطاء، وذلك هو حسدي؛ أن أرى عيونًا ملؤها الانتظار ولياليَ يضيؤها الشوق.

يا لَشقاء كلّ المانحين! يا لكسوف شمسي! يا للرغبة المتعطّشة إلى الرغبة في شيء ما! يا للجوع الحارق الذي في الشبع!

إنّهم يتناولون من يدي؛ لكن ترى هل ألمس روحهم؟ ما بين الأخذ والعطاء هوّة، وإنّ أصغر الفجوات لأكثرها تعذّرا على التجاوز.

جوعٌ يطلع من جمالي؛ وإنّي لأرغب في أن أُسيءَ إلى كلّ

الذين أُنيرهم، والذين أجود عليهم أُريد أن أسرقهم -كذا أنا أتعطّش إلى السوء.

أسحب يدي لحظة تمدّون أيديكم إليّ: تمامًا مثل الشلال يتردّد وهو في غمرة التدفّق - كذا أنا أتعطّش إلى السوء .

ثرائي هو الذي يتدبّر مثل هذا الانتقام، ومثل هذه الأحابيل تنبع من وحدتي.

سعادتي التي في العطاء استُنفدت في العطاء، وفضيلتي أنهكها زخمها الخاص.

من يظلّ على الدوام يمنح يتربّص به خطر أن يفقد الحياء، ومن يوزّع على الدوام يصيب يده وقلبه سكر الكَنَب من فرط التوزيع.

عيني لم تعد تدمع لخجل السائلين، ويدي غدت أصلب من أن تشعر بارتعاشة الأيدي المليئة.

ما الذي جرى لدموع عيني وزغب قلبي؟ يا لوحدة كلّ المانحين! يا لصمت كلّ المضيئين!

شموس كثيرة تحوم في فضاءات خلاء، وكلُّ نفس قاتمة تحدّثها بنورها؛ أمّا أنا فلا تنبس لي بكلمة.

أوه، عداء النور لكلّ ما هو مضيء؛ بلا رحمة يمضي في طريقه.

حاملة في الأعماق قسوتها تجاه كلّ مضيء، باردة إزاء الشموس؛ هكذا تمضي كلّ شمس.

مثل عاصفة تمضي الشموس في مداراتها؛ تتبع إرادتها التي لا تنثني: تلك هي برودتها.

وحدكم أنتم أيّها القاتمون الليليّون تستمدّون دفأكم من المضيئين! ووحدكم ترتشفون حليبكم وكلّ شراب منعش من ضرع النّور.

آه، جليدٌ من حولي، ويدي تحترق لملامسة كلّ جليدي. آه، ظمأٌ يسكن روحي ويتوق إلى عطشكم.

إنّه الليل: آه، لِم ينبغي عليّ أن أكون نورًا! وعطشًا لما هو ليليّ! ووحدةً!

إنّه الليل: هي ذي رغبتي تنفجر فيَ الآن مثل نبع -رغبتي تريد الحديث.

إنّه الليل: هي ذي الينابيع الفيّاضة ترفع صوتها في حديث مسموع. وروحي هي أيضًا نبع فيّاض.

إنّه الليل: هي ذي أغاني المحبّين تستيقظ الآن. وروحي هي أيضًا أغنية محبّ.»

8

لم يسبق لأحد أن نظم، أو شَعَرَ، أو تألّم على هذا النحو: إنّه ألم إله، واحد مثل ديونيزوس. من المحتمل أن تكون أريان(*) هي الجواب الوحيد عن هذا النشيد المدائحي الذي يتغنّى بوحدة

(*) أريان هي إبنة مينوس ملك كريتة، هي التي ساعدت تيزويس بواسطة بكرة من خيط صوف على تلمّس طريق العودة من المتاهة بعد أن قتل الوحش الفظيع (نصف إنسان ونصف ثور) الذي كان مينوس يخبّئُهُ داخل تلك المتاهة ويقدّم له في كلّ سنة سبع عذارى كأضحية . -المترجم

الشموس داخل نورها. . . من سواي يعرف ما هي أريان! . . لا أحد كان بمستطاعه أن يمتلك مفاتيح مثل هذه الألغاز، بل إنّني أشكّ في أن يكون هناك حتّى من رأى لغزًا ما هنا.

لقد حدّد زرادشت ذات مرّة مهمّته -وهي مهمّتي أيضًا- بصرامة شديدة، بحيث لم يدع مجالا كي يخطئ المرء فهم فحوى هذه المهمّة: إنّه إثباتيّ حدّ تبرير الماضي، حدّ منح الخلاص أيضًا لكلّ ما مضى.

«أمضي بين الناس كما لو كنت أتمشّى بين كُسارات للمستقبل: مستقبل أشاهده الآن.

هاجسي ومبتغاي، أن أجمع في كلٍّ موحَّدٍ ما كان شظايا وألغازًا وصدفًا فظيعة.

وكيف لي أن أتحمّل شرطي كإنسان لو لم يكن الإنسان شاعرًا، وفكّاك ألغاز ومخلّصًا للصّدف؟

أن نخلّص الماضي، وأن نحوّل كلّ «ذلك ما كان» إلى «ذلك ما أردت»، فذاك فقط هو ما أسمّيه خلاصًا.»

في موضع آخر يحدّد زرادشت بكلّ صرامة ماذا يمكن أن يعني «الإنسان» بالنسبة له؛ لا موضوع حبّ، ولا موضوع شفقة بالخصوص -لقد غدا زرادشت سيّدًا حتّى على قرفه الأكبر من الإنسان: الإنسان لديه شيء غير متشكّل، مادّة، حجارة قميئة تنتظر يد نحّات:

أن لا أريد، وأن لا أثمّن، وأن لا أبدع! ليظلّ بعيدًا عنّي مثل هذا الإعياء الأكبر!

في السعي إلى المعرفة أيضًا لا أشعر إلاّ بلذّة إرادة الإنجاب والتحوّل؛ وإذا ما كانت هناك براءة ما في أحكامي فإنّما يحصل ذلك لأنّها تحمل في صلبها إرادة الإنجاب.

بعيدًا عن الله، وعن كلّ الآلهة ساقتني هذه الإرادة؛ وما الذي كان يمكننا أن نبدع لو كانت هنالك آلهة؟

لكنّها تظلّ تسوقني مجدّدًا إلى البشر، إرادة الإبداع هذه، كما المطرقة دومًا مندفعة باتجاه الحجر.

إيه يا معشر البشر، في الحجر يرقد لي تمثال؛ صورة الصور! آه، أما كان له أن يرقد إلاّ في أكثر الحجارة صلابة وقبحًا؟...

والآن هي ذي مطرقتي تضرب بحنق على جدار سجنها. ومن الحجارة الشظايا ترابًا: ما الذي يهمّني في ذلك!

عليّ أن أُنهيَ التمثال، ذلك أنّ طيفًا جاء إليّ؛ أكثر الأشياء سكونًا وخفّة جاء إليّ ذات مرّة!

بهاء الإنسان الأرقى أطلّ عليّ في هيأة طيف: ما لي والآلهة إذن؟...

والآن سأُثير وجهة نظر أخيرة سوّغ الإشارة إليها البيت المعلّم عليه (المسطّر) في هذا المقطع الأخير: إنّ حدّة المطرقة ورغبة التدمير ذاتها تعدّ شروطًا أوّليّة لا غنى عنها بالنسبة للمهمّة الديونيزيّة. وإنّ الأمر القائل: «كونوا قساة أشدّاء»، والقناعة الأساسيّة بأنّ كلّ المبدعين قساة لهي العلامة المميّزة لجبلّةٍ ديونيزيّة. -

ما وراء الخير والشرّ

توطئة لفلسفة مستقبليّة

1

بدءاً من هنا تمّ تحديد مهمّة السنوات اللاحقة بأكثر ما يمكن من الصرامة. فبعد أن أُنجز الجزء الإثباتي (*jasagende*) من مهمّتي، جاء دور الشطر النافي قولا وعملا من المهمّة ذاتها: مرحلة قلب القيم المتداولة حتّى تلك الساعة؛ الحرب الكبرى -استفزاز حلول يوم الحسم. يضاف إلى نشاط هذه الفترة أيضًا ذلك البحث البطيء في ما حولي عن طبائع شبيهة من أولئك الذين يمكنهم من موقع القوّة أن يمدّوا لي يد المعونة لإنجاز عمل التدمير. ابتداء من تلك اللحظة ستغدو كتاباتي كلّها صنّارات صيد - لعلّ لي خبرة في الصيد أكثر من أيّ كان؟... وإذا ما لم يكن هنالك من صيد قد حصل، فذلك ليس ذنبي. السمك هو الذي لا يوجد...

هذا الكتاب (1886) هو في جوهره نقد للحداثة؛ للعلوم الحديثة، والفنون الحديثة، ولم تستثن منه حتّى السياسة الحديثة،

إلى جانب كونه إشارة إلى نموذج مضادّ أقلّ حداثة قدر الإمكان؛ نموذج نبيل وإثباتيّ. وهو بالنهاية مدرسة أشراف *école de gentillhommes* بمفهوم للأشرفيّة أكثر ذهنيّة وجذريّة ممّا تعارف عليه حتّى الآن... وإنّه على المرء أن يكون قدر كبير من الشجاعة، وأن لا يكون قد تعلّم الخوف كي يقدر على تحمّله...

كلّ ما ظلّ يعدّ مَفخرة العصر الحديث سيبدو هنا في هيأة النقيض لهذا النموذج؛ سلوكات فجّة وقبيحة تقريبًا: «الموضوعيّة» الشهيرة على سبيل المثال، و«الشفقة على كلّ متألّم»، و«المعنى التاريخي» وما يرافقه من خضوع للذّوق الغريب وانبطاح أمام الأحداث الصغيرة *les petits faits*، و«العلمويّة».. وإذا ما أخذنا بعين الإعتبار أنّ هذا الكتاب جاء بعد زرادشت فسيمكننا على ما أظنّ أن نحرز أيضًا النظام الغذائي الذي يكمن وراء نشأته. إنّ العين التي تربّت وفقًا لمستلزمات الضرورة القصوى على الرؤية البعيدة - زرادشت أبعد نظرًا من قيصر روسيا // - ستجد نفسها هنا مجبرة على النظر بدقّة إلى أقرب الأشياء والزمن وكلّ **ما يحيط بنا**. سيجد المرء في هذا الكتاب، على مستوى التفاصيل، وبخاصّة على مستوى الشكل انصرافًا فجئيًا عن الغرائز التي جعلت وجود زرادشت ممكنًا. تحتلّ الدقّة في الشكل والنوايا وفنّ إجادة الصمت موقع الصدارة هنا، ويمارس التحليل النفسيّ بقسوة وفظاعة مضمرَتين - هذا الكتاب خال من أيّة كلمة طيّبة... هنالك استراحة في كلّ هذا؛ ومن بإمكانه بالنهاية أن يدرك أيّ نوع من الاستراحة يستدعي مثل ذلك التبديد الذي عرفته الطيبة لدى زرادشت؟ ولكي نتكلّم لغة اللاهوتيّين - ولنستمعْ جيّدًا لأنّه نادرًا ما أتكلّم كلاهوتيّ - فإنّ الله

ذاته هو الذي كان ممدّدا في صورة حيّة تحت شجرة المعرفة بعد أن فرغ من أيّام عمله؛ كان يستريح من وظيفته كإله... لقد أنجز كلّ شيء على ما يرام...

ليس الشيطان إذًا سوى عطالة الربّ في كلّ يوم سابع...

جنيالوجيا الأخـلاق

كتاب سجاليّ

من المحتمل أن تكون المقالات الثلاثة التي تتكوّن منها الجنيالوجيا، من حيث طريقة التعبير، والنوايا، وفنّ المباغتة من أفظع ما كتب إلى حدّ الآن. إنّ ديونيزوس، كما نعرف، هو إله الظلمات أيضًا. هناك دومًا بداية مظلّلة عن قصد، باردة، علميّة، ساخرة حتّى، محتلّة للصّدارة ومعطّلة عن قصد. وشيئًا فشيئًا تتصاعد وتيرة الاضطراب؛ بعض رعود متفرّقة، فحقائق غير مستساغة تطلع من الأفق، ثمّ دمدمة مكتومة، إلى أن ينتهي كلّ شيء إلى وتيرة عنيفة *tempo feroce* حيث الأشياء كلّها تتدفّق قُدمًا في توتّر رهيب. وفي النهاية تبرز في كلّ مرّة داخل الإنفجارات المخيفة حقيقة جديدة مرئيّة من بين السحب الثقيلة.

حقيقة المقالة **الأولى** تتمثّل في سيكولوجيّة المسيحيّة: ميلاد المسيحيّة من روح الإضطغان، وليس من «الروح» كما يودّ الإعتقاد السائد؛ حركة معاكسة في جوهرها، وثورة على سيادة القيم النبيلة.

وتطرح المقالة الثانية مسألة سيكولوجية الضمير. هذا الأخير هو

أيضًا ليس كما يودّ الإعتقاد السائد «صوت الله داخل الإنسان»، بل غريزة القسوة الشنيعة التي ترتدّ إلى الدّاخل عندما تغدو عاجزة عن إفراغ شحناتها في الخارج. لأوّل مرّة يقع الكشف هنا عن حقيقة القسوة الشنيعة كإحدى الأسس الأكثر قدمًا وضرورة في الحضارة.

أمّا المقالة الثالثة فتقدّم جوابًا عن مسألة المصدر الذي تستمدّ منه مُثل الزّهد، ومُثُل القساوسة سلطتها برغم كونها مُثل الضرر بامتياز *par excellence*؛ إرادة النهاية، ومُثل الانحطاط. والجواب هو: (لقد أمكن ذلك) لا لأنّ الله هو الذي يحرّك أفعال القساوسة كما يحلو للناس أن يعتقدوا، بل فقط لمجرّد انعدام البديل faute de, mieux؛ أي لأنّه المَثل الأعلى الوحيد الذي ظلّ موجودًا حتّى ذلك الحين، ولأنّه لم يكن هنالك من مزاحم لذلك المثَل؛ «إذ الإنسان يفضّل أن يريد اللاشيء على لأن لا يريد شيئًا»... كان يُفتقر بالأساس إلى مثل أعلى مضاد - باستثناء زرادشت.

إنّكم تفهمون قصدي. إنّها ثلاث دراسات تمهيديّة حاسمة لخبير نفسانيّ من أجل قلب كلّ القيم.

هذا الكتاب يحتوي على أوّل تحليل لسيكولوجية القسّ.

أفـول الأصنام

فلسفة المطرقة

1

هذا المؤلَّف الذي يبلغ بالكاد 150 صفحة، البهيج النبرة وخطير العواقب في الآن ذاته -غول ضاحك-، هذا العمل الذي أُنجز خلال أيّام قليلة يصدّني الحياء عن ذكر عددها، يُعدّ استثناءً من بين الكتب جميعها. ليس هناك ما يفوقه دسامة في المحتوى واستقلاليّة وإثارة - ما هو أكثر خبثًا. وإذا ما أراد المرء أن يدرك بسرعة كيف كانت الأشياء تبدو لي منتصبة على رؤوسها، فإنّه ينبغي أن يبدأ بقراءة هذا المؤلَّف. ما يسمّى على صفحة العنوان أصنامًا إنما هي كلّ ما ظلّ يسمّى حقيقة إلى حدّ ذلك الحين. **أفول الأصنام** تعني بعبارة أوضح: إنّها نهاية كلّ الحقائق القديمة!...

2

ليس هنالك من حقيقة ولا أيّة «مثاليّات» لم يلامسها هذا الكتاب (يلامسها: ياله من تلميح حذر!..). لا الأصنام الأبديّة

وحدها، بل كذلك تلك الأقلّ عمرًا وبالتالي الأضعف ذاكرة؛ «الأفكار الحديثة» على سبيل المثال. ريح عاتية تهبّ بين الأشجار، وفي كلّ موضع تتهاوى ثمارٌ–حقائقَ. هناك تبذير خريف فائق الثراء في هذا الكتاب؛ يتعثّر المرء في الحقائق الملقاة على الأرض، وبعضَهَا يدهس بقدميه ويسحق - وإنّها لكثيرة جدًّا... لكنّ ما يتناوله بيده لم تعد أشياء مشبوهة وملتبَسة، بل قرارات قاطعة.

أنا (وليس غيري) من يمسك بمقياس «الحقائق»، وبالتالي فأنا من بيده الحسم. كما لو أنّ وعيًا ثانيًا قد نما في داخلي، كما لو أنّ «الإرادة» قد سلّطت نورًا على الطريق المعوجّة التي كانت تنحدر عليها حتّى ذلك الحين... الطريق المعوجّة التي تسمّى «الطريق إلى الحقيقة»... إنّها نهاية كلّ ذلك «النزوع القاتم»، إذ الإنسان الخيّر بالذات هو أبعد ما يكون عن معرفة الطريق السويّة... وبكلّ جديّة، لم يسبق لأحد قبلي أن عرف الطريق السويّة؛ الطريق الصاعدة: بدءاً منّي أنا أصبحت هناك مجدّدًا آمال، ومهامّ، وطرق مسطّرة للثقافة - وإنّني رسولها المبشّر... لذلك فأنا قدر أيضًا. -

3

مباشرة بعد إنهاء هذا العمل، ودون أن أتأخّر يومًا واحدًا، شرعت في إنجاز المهمّة الهائلة لـ قلب القيم مسكونًا بشعور واثق بالنّخوة ليس له من مثيل، متأكّدًا في كلّ لحظة من خلودي؛ بثقة قدرٍ محتوم كنت أحفر العلامة تلو العلامة على ألواح قُلّزيّة.

وُضعت مقدّمة الكتاب يوم 3 سبتمبر 1888. وعندما خرجت في

الصباح بعد أن أنهيت كتابتها وجدت أمامي أجمل يوم منحتني إيّاه أنغادين العليا؛ يوم شفّاف متوهّج الألوان ومحتضنا لكلّ المتناقضات والعناصر المتوسّطة بين الجليد والحرارة الجنوبيّة.

لم أغادر سيلس- ماريا إلاّ يوم 20 من شهر سبتمبر وقد حبستني هناك فيضانات الأمطار الغزيرة فكنت لعدّة أيّام الضيف الوحيد في ذلك المكان الرائع الذي سيمنحه اعترافي بالجميل اسمًا خالدًا فيما بعد. وبعد سفرة تخلّلتها حوادث عديدة بلغت حدّ خطر الهلاك في كومو *Como* التي حللت بها ليلا وكانت مغمورة بالمياه، وصلت بالنهاية عشيّة يوم 21 سبتمبر إلى تورينو، المكان المفضّل الذي استقرّ عليه اختياري ومقرّ إقامتي منذ ذلك الحين. نزلت مجدّدًا بنفس الشقّة التي نزلت بها خلال الربيع السابق، *via Carlo Alberto 6, III*، قبالة *Palazzo Carignano* حيث ولد فيتوريو إمانوئيل، والمشرف على *piazza Carlo Alberto* ومن ورائها أرض التلال. دون أن أتردّد لحظة واحدة، ودون أن أدع نفسي أتلهّى بأيّ شيء عدت إلى مواصلة العمل: لم يبق لي سوى إنجاز الربع الأخير.

30 سبتمبر: الانتصار الكبير. إنّه اليوم السابع؛ عطالة إله يتسكّع على حافة نهر بو Pô. في اليوم نفسه حرّرت مقدّمة كتاب «أفول الأصنام» التي جعلتُ من تصحيح نسختها المطبوعة فواصل استراحة خلال شهر سبتمبر.

لم أعرف أبدًا خريفًا مثل هذا، ولا كنت خمّنت وجود شيء من هذا القبيل على وجه الأرض - لوحة لكلود لوران(*) ممتدّة في

(*) كلود لوران: رسام فرنسي من القرن السابع عشر (توفّي في 23 نوفمبر 1682 =

رحاب اللانهاية؛ كلّ يوم يعادل غيره من الأيّام كمالاً فوق كلّ الحدود والقيود.

= بروما) عاش معظم حياته (منذ سنة 1613) بروما. تمتاز رسومه بالإهتمام بالمناظر الطبيعيّة. درس عن قرب تأثيرات الضوء على الطبيعة وركّز اهتمامه على البحر ورسم المرافئ مثل: «مرفأ في الضباب» (باريس اللوفر)، و«إبحار ملكة سبأ» (لندن). كما اهتمّ في وقت لاحق بالميثولوجيا القديمة وقصص الأنبياء والملوك الواردة في «الكتاب المقدّس» التي ضمّنها داخل لوحات المشاهد الطبيعيّة. من ضمن أعماله الشهيرة في هذا المجال: «الصباح، مع يعقوب وراحل»(1666)، «المساء، مع توبياس والملاك» (1663)، «الليل، مع يعقوب والملاك»، «تشريد هاجر» (1668)- (المترجم)

قضيـة فـاغنـر

قضية موسيقيّة

سيكون المرء عادلا تجاه هذا الكتاب إذا ما كان يتألّم لمصير الموسيقى تألّمه من جرح مفتوح. ما الذي يؤلمني بالذّات إن كنت متألّمًا لمصير الموسيقى؟ يؤلمني تنكّر الموسيقى لطابعها الإثباتي المشعّ، بحيث غدت موسيقى انحطاط وكفّت عن كونها ناي ديونيزوس. . . وإذا ما كان للمرء إحساس تجاه قضيّة الموسيقى كما لو كانت **قضيته الخاصّة**؛ أي كقصّة معاناته، فإنّه سيجد هذا المؤلَّف كثير المداراة وليّنًا فوق كلّ الحدود. أن يظلّ الواحد في مثل هذه الحالة مرحًا وقادرًا على السخرية من النفس بطيبة خاطر في الوقت الذي يستهزئ فيه بالآخرين - المصارحة بالحقيقة بفم ضاحك (*ridendo dicere severum*) - في حين تكون كلّ أنواع الشدّة مبرّرة بفعل الواقع المضحك (*verum dicere*)- فذلك هو عين الإنسانيّة. من يمكن أن يساوره شكّ بالنهاية في مقدرتي، أنا المدفعيّ العريق، على الخروج بعدّة وعتاد من أسلحتي الثقيلة على فاغنر؟. . . لقد احتفظت لنفسي بكلّ ما هو حاسم في هذه القضيّة؛ فأنا قد أحببت

فاغنر. - وبالنهاية هنالك، طبقًا للمهمّة التي أخذتها على عاتقي والطريق المتّبعة في أدائها، هجوم على «مجهول» ماكر ليس لأحد سواي أن يتكهّن بهويّته بسهولة -أوه، إنّ لديّ عددًا من «المجهولين» الذين عليّ أن أكشف القناع عنهم غير هذا الـ cagliostro(*) الموسيقي. وأكثر من ذلك فأنا أُريد في الحقيقة شنّ هجوم على هذه الأمّة الألمانيّة التي تزداد كلّ يوم فتورًا في مجال المسائل الفكريّة وفقرًا في الغرائز؛ أمّة أكثر فأكثر استقامة، تغتذي من كلّ المتناقضات بشهيّة متزايدة تُحسد عليها، وتزدرد، دون تمييز ودون أيّ شعور بعسر هضم، «الإيمان» كما العلمويّة، «المحبّة المسيحيّة» مع معاداة الساميّة، إرادة السيطرة (إرادة «الرايخ») و*l'évangile des humbles* (إنجيل الضعفاء). هذا اللاموقف بين المتناقضات! ياله من حياد مَعِدي و«نكران للذّات»! ويا لهذا الصّواب البلعومي الألماني الذي يساوي بين الأشياء كلّها ويستطيب كلّ الأشياء!... إنّ الألمان مثاليّون، ليس في ذلك شك...

خلال زيارتي الأخيرة إلى ألمانيا وجدت الذوق الألماني مجتهدًا أيّ جهد من أجل وضع مساواة بين فاغنر وبوّاق

(*) كاغلياسترو: البارون أليسّاندرو، واسمه الحقيقي جوزيبّي بالزامو، مغامر وخيميائي إيطالي من القرن الثامن عشر (1743-1795). حقّق شهرة في كامل أوروبا بتعاطي الخيمياء وادعائه إتيان المعجزات والإشتغال بصنع الذهب. حكم عليه بالإعدام في روما كدجال وزنديق. لعب دورًا أساسيًا في «قضيّة العقد» التي أثارت فضيحة كبرى ضدّ الملكة آن ماري أنتوانيت. تحوّل إلى شخصيّة أدبيّة في أعمال كلّ من شيللر (1789) وغوتة (1791) كما في إحدى أوبيرات يوهان شتراوس الإبن (1875). -(م)

Saeckingen(*)؛ ولقد كنت شخصيًّا شاهدًا في لايبزخ على تأسيس جمعية Liszt كتكريم لأحد الموسيقيّين الأكثر نزاهة وأكثر ألمانيّة - بالمعنى القديم لكلمة ألماني، وليس بمعنى ألمان الرايخ - وهو المايسترو Heinrich Schuetz، لكنّ الغاية الحقيقيّة من وراء ذلك كانت في الواقع رعاية ونشر الموسيقى الكنسيّة الليستسّة *listiger* Kirchenmusik(**) . . . إنّ الألمان مثاليّون، ليس في ذلك أدنى شكّ. . .

2

والآن، لا شيء يمكن أن يمنعني من أن أكون فظًّا غليظًا، وأن أصارح الألمان ببعض الحقائق القاسية؛ وإلاّ فمن ترى سيقوم بذلك؟ أعني بذلك عهرهم في مجال العلم التاريخي. ولا يقف الأمر عند حدّ أنّ المؤرخين الألمان قد افتقدوا كليًّا الرؤية الواسعة لمسار الثقافة وقيمها حتّى غدوا بموجب ذلك مجرّد مهرّجين في خدعة السياسة (أو الكنيسة)، بل إنّهم **أبطلوا** تلك الرؤية كليًّا. على المرء أن يكون «ألمانيًّا» أوّلا، أن يكون «عِرقًا»، وبعدها يمكن أن يقع البتّ في كلّ القيم واللاقيم في المجال التاريخيّ - هكذا تمّ تحديد القيم! (الانتساب) الألماني هو الحجّة، و«ألمانيا، ألمانيا فوق كلّ شيء»

(*) أوبرا فاسلرْ المستوحاة من قصيدة لشيفل Scheffel كان لها رواج شعبي في ألمانيا أنذاك .-(م)

(**) يعمد نيتشه هنا إلى عمليّة تلاعب بالألفاظ مستعملا نعت listig الذي يوهم على مستوى النطق بأنّه نسبة لـ Liszt، لكنّ حذف حرف Z يجعله يعني المحتال والماكر الخبيث. -(م)

هو المبدأ، والجرمان هم «نظام القيم العالمي» داخل التاريخ؛ حاملو راية الحريّة بالنظر إلى الإمبراطوريّة الرومانيّة، معيدو إرساء الأخلاق و«أمر الوجوب القطعي» بالنسبة للقرن الثامن عشر... هنالك كتابة للتاريخ من وجهة نظر ألمانيّة رايخيّة، بل ومعادية للساميّة أيضًا في ما أخشى، -هنالك كتابة للتاريخ بلاطيّة، والسيد فون ترايتشكه Von Treitschke(*) لا يخجل...

مؤخّرًا راجت على أعمدة الصحف الألمانيّة مقولة خرقاء في مجال العلم التاريخي لعالم الإستيطيقا الشوابي Vischer الذي توفّي في الأثناء، لحسن الحظّ؛ جملة في هيأة «حقيقة» على كلّ ألماني أن يتلقّاها بالموافقة: «إنّ النهضة وحركة الإصلاح الديني تكوّنان معًا كلاً موحّدًا: الإنبعاث الجمالي والإنبعاث القيَمي». إزاء مثل هذه المقولات ينفد صبري، وأشعر بالرغبة - رغبة أحسّ بها مثل واجب- في أن أُصارح الألمان بكلّ ما ارتكبوه من جرائم. **إنهم يتحمّلون مسؤولية كل الجرائم الكبرى التي ارتكبت خلال أربعة قرون من الزمن!**... يعود ذلك دومًا إلى السبب ذاته، وهو الجبن المتأصّل فيهم؛ جبنهم تجاه الواقع الذي هو جبنهم أمام الحقيقة، والسبب في ذلك هو عدم الصدق الذي تحوّل إلى غريزة لديهم: أي «مثاليّتهم»...

لقد حرم الألمان أوروبا من جني ثمار العصر التاريخي العظيم الأخير؛ عصر النهضة، وبدّدوا محتواه في اللحظة التي كانت

(*) هاينرش فون ترايتشكه (1834-1896) مؤرّخ ألماني ذو نزعة قوميّة ويعدّ ممثّل فكر الرايخ البروسي للقرن التاسع عشر.

«المنظومة القيَميّة الجديدة» والقيم المستجيبة إثباتيًّا للحياة والضامنة للمستقبل تحقّق انتصارها على قيم الانحطاط النقيضة في عقر دارها متوغلة حتى أعماق غرائز الجالسين في تلك الدّار. لقد أعاد لوثر، ذلك الراهب الكارثة ترميم الكنيسة، بل وأشنع من ذلك بألف مرّة، أعاد تثبيتها في اللحظة التي كانت فيها متقهقرة... المسيحيّة، تلك الديانة التي تحوّلت نفيًا لإرادة الحياة...! لوثر، ذلك الراهب «الفظيع» الذي، لفظاعته، انقضّ على الكنيسة - وبالتالي! أعاد تثبيتها... إنّه بوسع الكاثوليكيّين أن يجدوا مبرّرًا كي يحتفلوا بلوثر ويؤلّفوا مسرحيّات المدائح اللوثريّة (تكريمًا له): لوثر، و«الإنبعاث الجديد للقيم»!

لقد تمكّن الألمان في مناسبتين، وذلك عندما تحقّق عبر جهود جبّارة وشجاعة هائلة الوصول إلى نمط تفكير علميّ بأتمّ معنى الكلمة، نزيه ودون التباس، من إيجاد سبل ملتوية للعودة إلى «المثال» القديم وإجراء مصالحة بين الحقيقة و«المثال»، وهي في الحقيقة صيغ لإثبات الحقّ في رفض العلم، والحقّ في الكذب. لايبنتز وكنط! هذان القيدان الكبيران اللذان يعرقلان مسيرة النزاهة الفكريّة بأوروبا!

وأخيرًا، عندما برزت في الفترة الفاصلة بين قرنين من الانحطاط قوّة ضاربة *force majeure* من العبقريّة والإرادة، قويّة بما فيه الكفاية لتجعل من أوروبا كيانًا موحّدًا؛ أي وحدة سياسيّة واقتصاديّة قادرة على تسيير العالم بكلّيته، تمكّن الألمان بـ«حروبهم التحرّريّة» من حرمان أوروبا من التقاط الدلالة، بل الطابع الخارق لظهور نابليون... إنّهم يتحمّلون بذلك مسؤوليّة كلّ ما حدث من

بعد، وكلّ ما يوجد اليوم؛ القوميّة: المرض الأكثر تنافيًا مع العقل والثقافة، هذا العصاب القومي *nevrose nationale* الذي تعاني منه أوروبا؛ تخليد الدويلات الصغيرة، والسياسات الصغيرة. لقد حادوا بأوروبا عن محتواها وعقلها، وقادوها إلى طريق مسدودة - هل هناك من يعرف مخرجًا من هذا المأزق سواي؛ مهمّة كبيرة بما فيه الكفاية لإعادة الربط بين الشعوب؟

3

وبالنهاية، لِم لا أعبّر صراحة عن ريبتي وتوجّسي؟

سيحاول الألمان، فيما يخصّني أنا أيضًا، أن يفعلوا ما بوسعهم لكي يتمخّض قدر هائل عن فأر. وإلى حدّ الآن فهم قد ورّطوا أنفسهم معي على أيّة حال، وإنّي لأشكّ في أن يفعلوا أفضل من ذلك في المستقبل. - آه، لكم أشتهي أن أكون نبيّ سوء هنا!

قرّائي وجمهوري الطبيعيّ الآن هم روسيّون واسكندنافيّون وفرنسيّون - هل سيتزايد عددهم أكثر فأكثر؟ - أمّا الألمان فإنّ حضورهم داخل تاريخ المعرفة قد تمّ دوما عن طريق كوكبة من الأسماء ذات الطابع الملتبس، وهم لم ينتجوا سوى مزيّفي عملة «عديمي الوعي» (ينطبق هذا النعت على فيختة، وشوبنهاور، وهيغل، وشلايرماخر مثلما ينطبق على كنط ولايبنتز؛ إنّهم جميعًا ليسوا شيئًا آخر غير «شلايرماخر»(*))؛ ولن يحصل لهم أبدًا شرف

(*) يعتمد نيتشه هنا أيضًا تلاعبا على المعنى المزدوج لعبارة Schleiermacher التي هي في الآن نفسه إسمٌ لأحد الفلاسفة الألمان، لكنّها تعني أيضًا (لغة): صانع / أو مصمّم الحُجُب.

أن يكون أوّل عقل مستقيم في تاريخ الفكر؛ العقل الذي تتمكّن الحقيقة بواسطته من محاكمة أربعة آلاف سنة من التزييف، متماهيًا مع العقل الألماني. العقل الألماني هو الهواء الفاسد بالنسبة لي: إنّني أتنفّس بصعوبة بجوار هذه القذارة النفسيّة المتحوّلة غريزة والتي تنضح بها كلّ كلمة وكلّ هيأة لدى الألمان. لم يكن لهم أبدًا أن يعرفوا قرنًا من المحاسبة القاسية للنفس مثل القرن السابع عشر لدى الفرنسيّين - إنّ شخصيّات من نوع ديكارت ولاروشفوكو لتعدّ أرقى مائة مرّة في مجال النزاهة الفكريّة من أفضل أفاضل الألمان- وإلى يومنا هذا لم ينشأ من بينهم خبير نفسانيّ واحد، في حين يعدّ علم النفس مقياسًا لنقاوة أو عدم نقاوة عرق بشريّ ما. . . ومن أين يمكن أن يكون للمرء عمق إن لم يكن على الأقلّ نقيًّا؟ لدى الألمان، كما لدى النساء، لا يُدرك أيّ عمق؛ إذ ليس هنالك من عمق، ذلك كلّ ما في الأمر. ومع ذلك فهم ليسوا حتّى ذوي سطح؛ ما يسمّى «عميقًا» لدى الألمان هي بالضبط غريزة اللانقاوة تجاه النفس التي أتكلّم عنها هنا: إنّهم يريدون عدم الوضوح مع النفس. هل يسمح لي بأن أقترح اعتماد عبارة «ألماني» عملة عالميّة لتصريف هذا التدهور النفساني؟ في الوقت الراهن، على سبيل المثال، يعلن قيصر ألمانيا أنّ «واجبه كمسيحيّ» يقتضي منه تحرير العبيد في إفريقيا: هذا الكلام نسمّيه نحن الأوربيين الآخرين بكلّ بساطة: «ألماني». . . هل استطاع الألمان أن ينتجوا كتابًا واحدًا ذا عمق؟ إنّهم يفتقرون حتّى إلى مجرّد فكرة عمّا يمكن أن يكون عمقًا في كتاب. لقد تعرّفت على علماء كثيرين يعتبرون كنط عميقًا، وإنّني لأخشى أن يكون في البلاط البروسي اعتقاد بأنّ السيد فون ترايتشكة أيضًا عميق. لكنّني

عندما أنوّه بستندال كخبير نفسانيّ عميق، يحدث لي أن أسمع من بين الأساتذة الجامعيّين من يطلب منّي أن أكرّر له نطق اسمه. . .

4

لم لا أمضي حتّى المنتهى؟ فأنا أحبّ عمليّات الكنس الكلّيّ. وإنّه لمن دواعي الفخر لديّ أن تكون لي سمعة محتقر الألمان *par excellence* - بامتياز.

كنت قد عبّرت مبكّرًا، وأنا في السادسة والعشرين من عمري، عن ريبتي تجاه الطبع الألماني (المعاينات غير المعاصرة - III). الألمان بالنسبة لي شيء لا يُطاق. وعندما أحاول أن أتمثّل نوعًا من البشر يمثّل النقيض لكلّ طباعي الغريزيّة يبرز لي في الحين وجه الألماني. إنّ أوّل شيء أحاول أن أستشفّه عندما أُجري فحصًا دقيقًا على شخص ما هو إذا ما كان يمتلك حسًّا بالمسافة، وإذا ما كان قادرًا في كلّ موضع على تمييز المستويات والدرجات والتراتب القائم بين البشر؛ إذ ذلك هو ما يجعل منه رجلا شريفًا *gentillhomme*. أمّا إذا ما كان على غير هذا فهو من أولئك الذين تورّطوا دون رجعة في الانتماء إلى فصيلة الصدور الرحبة؛ أوه، أولئك الوديعين، ليّني العريكة الذين يكوّنون الحثالة! لكنّ الألمان أيضًا حثالة. إنّهم وديعون ليّنو العريكة.

إنّ المرء يحطّ من نفسه بمخالطة الألمان؛ فالألماني يساوي بين كلّ الأشياء. . . وإذا ما طرحتُ جانبًا علاقاتي مع بعض الفنّانين، وبدرجة أولى ريشارد فاغنر، فسأجد أنّني لم أعش ساعة واحدة

ممتعة مع الألمان. . . ولو افترضنا أنّ أعمق العقول على مدى آلاف السنين يحلّ بين الألمان فإنّ أيّة (retterin des Capitols إوزّة عبيطة حمقاء)(*) سيعنّ لها أنّ روحها القميئة لا تقلّ في أسوأ الحالات قيمة عن منزلته. . . إنّني لا أطيق هذا الجنس الذي لا تروق معاشرته، هذا الجنس الذي لا حسّ لديه بالفوارق *nuances* - يا لبؤسي أنا الفارقة *nuance* -، الذي لا عقل في قدميه ولا يستطيع حتّى المشي. . . وبالنهاية ليس للألمان أقدام، بل قوائم. . . ليس للألمان فكرة عن مدى دناءتهم، وإنّ هذا لأرقى تعبير عن الدّناءة - إنّهم لا يخجلون حتّى من كونهم مجرّد ألمان. . . يريدون أن تكون لهم كلمة في كلّ أمر، ويعتقدون أنّ لهم دورًا محدّدًا؛ بل إنّني أخشى أن يكونوا قد تدبّروا قرارًا ما بشأني(**). . .

حياتي بكلّيتها كانت الدليل القاطع على هذه المقولات. . . لكن، عبثًا بحثت طوال حياتي عن شيء من الكياسة ومن رهافة الحسّ تجاهي. أجل، وجدت ذلك لدى اليهود، لكن ولا مرّة واحدة لدى الألمان.

(*) die Retterin des Capitols حرفيًّا تعني منقذة الكابيتول. يشير نيتشه هنا إلى حادثة تاريخيّة شهيرة تتمثّل في محاولة الغال مهاجمة كابيتول روما ليلا وكان أن أيقظ نعيق الإوزّ الرومان الذين هبّوا لردّ الهجوم وإنقاذ الكابيتول. منذ ذلك الوقت غدت طيور الإوزّ فصيلة مباركة بالنسبة للرومان وسمّوها بـ«منقذة الكابيتول».

(**) يعود التعبير عن هذا الهاجس في العديد من المواضع، وبتعابير مختلفة؛ لكأنّ نيتشه كان شبه متأكّد من عمليّة الإحتواء التي ستجري على فكره بطريقة تشبه السطو بما يتبع ذلك من تزييف وتزوير؛ عمل قد شرعت فيه أخته إليزابيت فورستر وهو ما يزال بعد على قيد الحياة.

إنّه من خصائص طبعي أن أكون ليّنًا ولطيفًا تجاه جميع الناس - إنّه حقيّ، أن لا أُقيم فوارق- لكنّ هذا لا يمنعني من أن أظلّ يقظًا مفتوح العينين. لا أستثني في ذلك أحدًا، وأقلّ من أستثني هم أصدقائي، وأتمنّى بالنهاية أن لا يكون ذلك قد نال من إنسانيّتي تجاههم! هنالك خمس أو ستّ مسائل جعلت منها قضايا شرف بالنسبة لي.- مع ذلك كنت أتقبّل كلّ رسالة موجّهة لي في السنوات الأخيرة كنوع من الصلافة Cynisme تجاهي: هناك أكثر صلافة في اللطافة ممّا في أيّ نوع من الحقد عليّ. وعلى أيّة حال أنا لا أتوانى البتّة في مصارحة كلّ صديق بأن أقول له وجها لوجه إنّه لم ير أبدًا من موجب لإرهاق نفسه بتناول واحدة من كتاباتي بالدّراسة؛ فأنا أُدرك من خلال أبسط العلامات أنهم لا يعرفون حتّى ما الذي يوجد داخلها. أمّا في ما يتعلّق بزرادشتي بصفة خاصّة، فمَن مِن أصدقائي استطاع أن يرى فيه شيئًا أكثر من غرور غير مباح، وعديم الفعالية من حسن الحظّ؟... عشر سنوات ولا أحد من أصدقائي حرّكه وخز الضمير كي ينهض للدفاع عن اسمي الذي ظلّ مغمورًا بالصمت واللامبالاة. واحد أجنبيّ فقط، دانماركي، كان لديه ما يكفي من رهافة الطبع ومن الشجاعة كي يكون أوّل من استشاط غيظًا من سلوك أصدقائي المزعومين... وإنّني أتساءل: داخل أيّة جامعة ألمانيّة يمكن أن نتصوّر إلقاء محاضرات حول فلسفتي أمرًا ممكنًا مثلما فعل الدكتور جورج براندس خلال الربيع الماضي في جامعة كوبنهاغن مقيمًا بذلك الدليل على أنّه فعلا خبير نفسانيّ بحقّ. أمّا أنا فلم أكن لأتألم البتّة من جرّاء كلّ هذا، فالأمور ذات الطابع الضروري لا تؤلمني: *amor fati* (حبّ القَدر) هو جبلّتي العميقة.

لكنّ هذا لا ينفي كوني أحبّ السخرية أيضًا، بما في ذلك السخرية الكونيّة. هكذا بعثت إلى الوجود كتاب «قضيّة فاغنر» سنتين قبل صاعقة «قلب القيم» المدمّرة التي سترجّ الأرض بكلّيتها: فرصة أخرى للألمان كي يخطئوا في شأني مرّة أخرى وينالوا بذلك الخلود! إنّ لديهم متّسعاً من الوقت بعد! -هل أفلحوا؟

أمر رائع أيّها السّادة الألمان! تهانيّ...

[منذ قليل كتبت لي صديقة قديمة بأنّها تضحك منّي الآن... وهذا في ظرف أحمل فيه عبء مسؤوليّة جسيمة - حيث ما من كلمة بوسعها أن تكون رقيقة بالقدر المطلوب تجاهي، وما من نظرة لتعبّر عن المهابة التي أستحقّ. فأنا أحمل على كتفيّ قدَر الإنسانيّة.][*]

(*) هذه الفقرة الأخيرة (بين المعقّفين) مفقودة في النسخ المتداولة، ويثبتها كولّي ومونتناري في الطبعة الدراسيّة النقديّة.

لِـمَ أنـا قـدر

1

أعرف قَدري. ذات يوم سيقترن اسمي بذكرى شيء هائل رهيب؛ بأزمة لم يُعرف لها مثيل على وجه الأرض، أعمق رجّة في الوعي، وحكم قرار حاسم ضدّ كلّ ما ظلّ عقيدة وواجبًا وقداسة حتّى الآن. فأنا لست إنسانًا، بل عبوة ديناميت. ومع هذا كلّه ليس فيَ ما يمتّ بصلة إلى مؤسّس ديانة، فالأديان شأن الرعاع، وإنّي لأشعر بالحاجة إلى غسل يديّ بعد ملامسة المتديّنين... أنا لا أريد «مؤمنين»، وأعتقد أنّني أكثر شرًّا من أن أستطيع أن أؤمن بنفسي. لا أتحدّث البتّة إلى كتلة الجماهير... وأشدّ ما يخيفني هو أن يكرّسني الناس ذات يوم كـقداسة: بإمكان المرء أن يخمّن السبب الذي يدفعني إلى نشر هذا الكتاب قبل أن يحصل ذلك الأمر؛ سيكون عليه أن يحميني من أيّ استعمال شنيع سيّيء العواقب. لا أريد أن أكون قدّيسا، بل أفضّل أن أكون مهرّجًا... ولعلني بالفعل أضحوكة. ومع ذلك -بل لا، ليس بالرغم من ذلك، إذ ليس هنالك إلى حدّ الآن أكثر كذبًا من القديسين - فالحقيقة هي التي تنطق من خلالي.

لكنّ حقيقتي فظيعة؛ ذلك أنّ الكذب هو الذي ظلّ يُدعى حقيقة حتّى الآن.

- قلب كلّ القيم: تلك هي صيغتي المبجّلة للتعبير عن أرقى وعي ذاتي للإنسانيّة قد تحوّل لحمًا وعبقريّة لديّ. قدري هو الذي أراد لي أن أكون أوّل إنسان مستقيم، وأن أعي نفسي كنقيض لأكاذيب الآلاف من السنين... إنّني أوّل من اكتشف الحقيقة لأنّني استطعت أن أرى إلى الكذب ككذب -اشتممته... عبقريّتي في أنفي... أُناقض كما ليس لأحد أن يناقض، ومع ذلك فأنا النقيض لكلّ عقل نافٍ. إنّني رسول بشرى سعيدة ليس له من مثيل، ولي خبرة بمهمّات على درجة من السموّ يعجز عن وصفها الكلام؛ ابتداء منّي أنا غدت هناك مجدّدًا آمال. ومع ذلك فأنا رجل الطّامّة والقدر المحتوم، ذلك أنّه عندما تدخل الحقيقة في صراع مع أباطيل الآلاف من السنين يشهد العالم ارتجاجات وتوتّراتِ زلازل وتحوّلَ جبال وأودية كما لا يخيّل للمرء حتّى في الأحلام. عندها يكون مفهوم السياسة قد انحلّ كليًّا في حرب العقول، وكلّ البنى السلطويّة قد راحت شظايا في الفضاء؛ إذ كلّها متأسّسة على الكذب. ستكون هناك حروب لم تشهد الأرض مثيلا لها في ما مضى.

الآن فقط، وابتداء منّي أنا أصبحت هناك سياسة عظيمة على وجه الأرض.

2

أتريدون عبارة تترجم عن هذا القدر المتحوّل إنسانًا؟ توجد مثل هذه العبارة في زرادشت:

وكلّ من يريد أن يكون مبدعًا في الخير وفي الشرّ، عليه أن يكون أوّلا مدمّرًا، وأن يحطّم القيم.

كذا هو الشرّ الأعظم جزء من الخير الأعظم: لكنّ ذلك هو الخير المبدع.

إنّني أفظع إنسان من بين ما وُجد إلى حدّ الآن؛ لكن هذا لا ينفي أنّني سأكون الأكثر إحسانًا. أعرف لذّة في التدمير تتناسب وطاقاتي التدميريّة؛ وأنا في كلا الأمرين خاضع لطبيعتي الديونيزيّة التي لا تفصل بين فعل النفي والاستجابة الإثباتيّة. إنّني اللاأخلاقي الأوّل؛ لذلك فأنا المدمّر بامتياز *par excellence* .

3

لا أحد سألني، وكان على المرء أن يسألني عمّ يعنيه على لساني؛ أي على لسان اللاأخلاقي الأوّل، اسم زرادشت: ما كان يمثّل الطابع الفريد الهائل لهذه الشخصيّة الفارسيّة عبر التاريخ هو بالضبط نقيض هذا الذي نحن بصدده الآن. لقد رأى زرادشت في الصراع القائم بين الخير والشرّ الدّولاب المحرّك للأشياء؛ إنّ ترجمة الأخلاق ميتافيزيقيًّا على أنها طاقة، وسبب، وهدف في حدّ ذاته، لهي من صنيعه. لكنّ هذا السؤال بإمكانه أن يكون في حدّ ذاته جوابًا. لقد ابتدع زرادشت هذا الخطأ الشنيع؛ الأخلاق، وبالتالي كان عليه أن يكون أوّل من يعترف بهذا الخطإ. ليس فقط لكونه يملك أطول وأكثر تجربة من كلّ المفكّرين -فالتاريخ بكلّيته هو التفنيد التجريبي لمقولة «النظام الكوني للقيم» المزعومة- الأهمّ (هنا) هو أنّ زرادشت أكثر مصداقيّة من أيّ مفكّر آخر، فتعاليمه، وتعاليمه

وحدها، تعتمد الحقيقة قيمة أعلى؛ بما يعني أنّها النقيض لجبن «المثاليّين» الذين يعمدون إلى الفرار أمام الحقيقة. إنّ زرادشت يمتلك من الشجاعة ما يفوق شجاعة كلّ المفكّرين مجتمعين. التكلّم بالحقائق وإتقان الرّماية؛ تلك هي الفضيلة الفارسيّة. - هل فهمتموني؟ تجاوز الأخلاق لذاتها من منطلق الصدق، وتجاوز الأخلاقيّ لذاته ليحلّ في نقيضه - فيَ أنا - ذلك هو ما يعنيه اسم زرادشت على لساني.

4

تنطوي عبارة اللاأخلاقي لديّ في الواقع على عمليّتي نفي اثنتين. في العمليّة الأولى أنفي نموذجًا من الناس كان يعتبر إلى حدّ الآن هو الأرقى؛ **الخيّرون وذوو النوايا الخيّرة، وأصحاب الأعمال الخيّرة**؛ ومن الناحية الثانية أنفي نوعًا من الأخلاق التي فرضت صلاحيتها ونفوذها على أنّها الأخلاق في ذاتها؛ أخلاق الإنحطاط، وبتعبير ملموس الأخلاق المسيحيّة. قد يكون مباحًا اعتبار عمليّة النفي الثانية محدِّدة، ذلك أنّ التقدير المبالغ فيه الذي يُمنح إلى الخير وإرادة الخير يُعدّ بالنسبة لي من نتائج الانحطاط وعَرَض ضعف وممّا لا يتلاءم وحياة إثباتيّة مندفعة إلى التطوّر: في الإستجابة الإثباتيّة يكون النقض والتدمير شرطين أساسيّين.

سأتوقّف أوّلا عند سيكولوجية الخيِّر. كي نقدّر قيمة نموذج ما من البشر، علينا أن نحدّد الثمن الذي يدفعه من أجل البقاء؛ أي أن نتعرّف على شروط وجوده. إنّ شرط الوجود لدى الخيّرين هو الكذب: بتعبير آخر الإصرار على عدم الرغبة في رؤية الكيفيّة التي

يتكوّن عليها الواقع في الأساس؛ أي لا على ذلك المنحى الذي يجعله يستدعي في كلّ آونة حضور الغرائز الخيّرة، وأقلّ من ذلك وفقًا للمنحى الذي يغدو بموجبه في متناول أيدي قصيري النظر وأصحاب النوايا الطيّبة. أن يُنظر إلى أوضاع البؤس بجميع أصنافها كاعتراض وكشيء ينبغي في جميع الأحوال إزالته، فتلك هي عين الحماقة، وإذا ما حسبنا لها الحساب الأقصى فهي كارثة كبرى من حيث النتائج المنجرّة عنها؛ قدَرٌ أعمى على درجة من الغباء تعادل حماقة إرادة إزالة الطقس الرديء - رأفة بالفقراء مثلا. . .

داخل الانتظام الكبير الذي يسير عليه العالم ككلّ تمثّل شناعات الواقع (على مستوى المشاعر والغرائز، وإرادة السلطة)، وبدرجة تستعصي على الحصر، عنصرًا أكثر ضرورة من أيّ شكل من أشكال السعادة الصغيرة؛ «الخير» المزعوم. وإنّه لينبغي أن يكون المرء متسامحًا جدًّا كي يمنح هذا الأخير حتّى مجرّد الحقّ في الوجود، علمًا وأنّه محدّد في وجوده بشرط غريزة الكذب. وستأتي المناسبة التي سأبيّن فيها بالحجّة والدليل العواقب الشنيعة فوق كلّ الحدود التي سيعرفها التاريخ من جرّاء التفاؤل؛ ذلك الوهم الذي ابتدعه خيال الـ *homines optimi* (الإنسان المتفائل). يقول زرادشت الذي كان أوّل من أدرك أنّ المتفائل على نفس المستوى من الانحطاط كالمتشائم، بل وأكثر ضررًا منه:

«الخيّرون لا ينطقون بالحقيقة أبدًا. سواحلَ وهميةً ويقينيّات خاطئةً يعلّمكم الخيّرون؛ داخل أكاذيب الخيّرين وُلدتم، وفيها كان مأواكم. كلّ شيء غدا في عمقه الدّفين مشوّهًا معوجًّا على أيدي الخيّرين.»

من حسن الحظّ أنّ الحياة ليست متأسّسة وفقًا لتلك الغرائز التي تجد فيها دابّة القطيع سعادتها الضيّقة. إنّ المطالبة بأن يغدو الكلّ «إنسانًا خيّرًا»، دابّة قطيع، أزرق العينين، خيّر النوايا، «روحًا جميلة»، أو غيرانيًّا، كما يتمنّى ذلك السيد هربرت سبنْسر، فذلك معناه أن يُسلب الوجودُ عظمةَ طبعه؛ أي خصاء الإنسانيّة والنزول بها إلى مستوى *chinoiserie* بائسة. **وقد حصلت تلك المحاولة بالفعل!.. وذلك بالضبط ما سمّي بالأخلاق...** وفقًا لهذا المعنى يدعو زرادشت الخيّرين «حثالة البشر» حينًا و«بداية النهاية» حينًا آخر، وفي كلّ الأحوال يعتبرهم الصنف الأكثر ضررًا من بين البشر، ذلك أنّهم يفرضون وجودهم على حساب **الحقيقة** كما على حساب **المستقبل**:

الخيّرون لا يستطيعون إبداعًا، إنّهم دومًا بداية النهاية.

يصلبون من يكتب قيمًا جديدة على ألواح جديدة، يضحّون بالمستقبل فداء لأنفسهم؛ يصلبون كلّ مستقبل للإنسان.

الخيّرون - بداية النهاية كانوا على الدوام...

ومهما عظمت مضارّ المفترين على العالم، **فمضارّ الخيّرين تظلّ أشدّ الأضرار مضرّة**. -

زرادشت، أوّل خبير بنفسيّة الخيّرين، هو -بالتالي- صديق للأشرار.

إذا ما ارتقى صنف المنحطّين من البشر إلى مرتبة الصنف الأعلى، فإنّ ذلك لا يمكن أن يحصل إلاّ على حساب الصنف النقيض؛ صنف الأقوياء والممتلئين ثقة في الحياة. وعندما تشعّ دابّة القطيع ببريق الفضيلة الأكثر نقاءً، يرى إنسان **الاستثناء** نفسه مندحرًا

إلى منزلة الشرّيرين. وعندما يسطو الكذب على عبارة الحقيقة بهدف توظيفها لخدمة منظوره، يجد ما هو صادق بالفعل نفسه محشورًا ضمن أسوإ الأسماء. لا يدع زرادشت مجالا لأيّ شكّ؛ يقول إنّ معرفته بالخيّرين و«أفضل الناس» هي التي تسبّبت في ذلك الذعر الذي لديه تجاه الإنسان، وأنّه استمد من ذلك النفور جناحيْن «من أجل التحليق في أفق مستقبل بعيد». وهو لا يخفي أنّ نموذجه البشريّ نموذج فوقبشريّ نسبيًّا، وهو مقارنة بالخيّرين تحديدًا فوق-بشريّ بالفعل، وإنّ الخيّرين والعادلين سيسمّون إنسانه الأرقى شيطانًا...

أيها الناس الرّاقون الذين التقت بهم عيناي، هذه مظنّتي فيكم، وضحكتي السريّة: إنّني أحرز ذلك؛ ستسموّن إنساني الأرقى شيطانًا!

وإنّكم غريبون كلّ الغربة في عمق أرواحكم عن العظماء؛ بحيث سيبدو لكم فظيعًا في طيبته هذا الإنسان الأرقى...

في هذا الموضع، وليس في سواه، ينبغي علينا أن نجد منطلقًا لفهم ما الذي يريده زرادشت: هذا النموذج الذي تصوّره (الإنسان الأرقى) يتمثّل الواقع كما هو: إنّه يمتلك ما يكفي من القوّة لهذا الغرض؛ وهذا الواقع ليس غريبًا عنه، ولا هو(الإنسان الأرقى) ببعيد عنه: إنّه هو ذاته، وهو ما يزال يحمل في داخله كلّ فظاعاته وإشكالاته؛ **بهذه الكيفيّة فقط يمكن للإنسان أن يكون ذا عظمة**...

6

غير أنّني، ولغرض آخر، اخترت لنفسي عبارة اللاأخلاقي

كعلامة مميّزة وعنوان شرف؛ وأنا فخور بأن تكون لي هذه العبارة التي تضعني في موضع المواجهة مع البشريّة بكلّيتها. . .

ما من أحد قد أحسّ إلى حدّ الآن بالأخلاق المسيحيّة كشيء واقع دون منزلته مثل هذا الشعور يقتضي ارتفاعًا معيّنًا، ونظرة بعيدة وعمقًا نفسيًّا وغورًا خارقًا للعادة. فالأخلاق المسيحيّة كانت دومًا كيركا الساحرة بالنسبة لكلّ المفكرين؛ كلّهم كانوا مسخّرين لخدمتها. - من هبط قبلي إلى تلك الكهوف التي تتصاعد منها الأنفاس السامّة لذلك النوع من المُثل -الإفتراء على العالم!-؟ ومن كان له حتّى أن يتخيّل وجود مثل هذه الكهوف؟ بل ومن كان من بين الفلاسفة خبيرًا نفسانيًّا قبلي، وليس بالأحرى نقيضًا لهذا؛ أي «دجّالا راقيًا» و«مثاليًّا»؟ كلاّ، لم يكن هناك علم نفس من قبلي. أن يكون الواحد بادئًا، مدشّنًا، فذلك ما يمكن أن يغدو لعنة، وهو على أيّة حال قدَر؛ ذلك أنّ **الأوّل يستخفّ ويَحتقِر لكونه أوّلاً**. . . إنّ القرف من الإنسان الخطر الذي يتربّص بي. . .

7

أفهمتموني؟ إنّ الذي يقصيني ويضعني على هامش بقيّة البشريّة بأسرها هو كوني اكتشفت حقيقة الأخلاق المسيحيّة. لذلك كنت بحاجة إلى كلمة تكون حاملة لمعنى تحدٍّ موجّه لكلّ شخص. أن لا يكون هناك من فتح عينيه على هذا الأمر من قبل، فذلك بالنسبة لي هو الرّجس الأكبر الذي تحمل البشريّة وزر خطيئته؛ إنّها مغالطة الذات وقد تحوّلت غريزة، وإرادة تعام مبدئيّة عن كلّ ما يحدث، عن كلّ سببيّة وكلّ واقع؛ إنّه التزوير الذي يطال النفس البشريّة حدّ

الإجرام. إنّ التعامي عن حقيقة المسيحيّة لهو الإجرام بحقّ؛ الإجرام في حقّ الحياة. تستوي في هذا الأمر آلاف السنين، وكلّ الشعوب - أوّلها وآخرها-، الفلاسفة والعجائز - عدا خمس أو ستّ لحظات استثنائيّة من مجمل التاريخ، وأنا سابعها.

لقد ظلّ المسيح، هذا الكائن العجيب، يُعدّ «الكيان الأخلاقي»، و«ككائن أخلاقي» كان أكثر عبثيّة، أكثر كذبًا، أكثر غرورًا، أكثر طيشًا، والأكثر ضررًا على نفسه - أكثر ممّا يمكن أن يحلم به أشنع المزدرين بالإنسانيّة خُبثًا. الأخلاق المسيحيّة! إنّها أكثر أشكال إرادة الكذب خُبثًا: كيركا الساحرة الحقيقيّة، تلك التي أفسدت بغواياتها الإنسانيّة. ليس الخطأ كخطإ هو ما يستثيرني في هذا كلّه؛ وليست آلاف السنين من انعدام «النوايا الصادقة» والانضباط المعنوي والاستقامة والشجاعة الفكريّة هي ما يفشيه انتصار هذه الأخلاق، بل الإفتقارُ إلى الروح الطبيعيّة، وواقعُ الحال المفزع الذي يتمثّل في كون «اللاطبيعيّ» هو الذي حظي بنيل آيات التكريم الأكبر وغدا سيفًا مسلولا فوق رأس الإنسانيّة في هيأة «أمر وجوب قطعيّ». أن يحصل التباس للجميع في هذا الأمر؛ لا كأفراد، ولا كشعب، بل كإنسانيّة في مجملها!! أن يتعلّم الإنسان احتقار أولى غرائز الحياة، وأن تُبتدَع أكذوبة «الروح» و«العقل» من أجل سحق الجسد، وأن يُعلّم النظر إلى أولى شروط الحياة؛ إلى الجنس على أنّه دنس، وأن يُسعى لاختلاق مبدإ للشرّ داخل أعمق الشروط الضروريّة للنموّ: الأنانيّة الصارمة (إنّ عبارة الأنانيّة في حدّ ذاتها تحمل معنى الافتراء)؛ وأن يرى الإنسان بالمقابل في العلامات المميّزة للانحطاط ولمناقضة الغرائز الطبيعيّة، وفي الغيرانيّة وفقدان نقطة الإرتكاز، وفي

«الانسلاخ عن الذات» و«حبّ ذوي القربى» القيمة الأسمى -ماذا أقول؟ بل القيمة في ذاتها!!...

أيعقل أن تكون الإنسانيّة بصدد الانحطاط؟ أم تراها كانت منحطة دومًا؟ الثابت في الأمر هو أنّها ظلّت لا تلقّن سوى قيم الانحطاط كقيم أسمى. إنّ أخلاقيات «نكران الذات» هي أخلاق الانحطاط بامتياز؛ حالةُ «أنا أهلَك» مترجمةً إلى أمر وجوب: «عليكم جميعًا أن تهلكوا» - وليس فقط على مستوى صيغة الأمر المبدئيّة!... هذه الأخلاق الوحيدة التي ظلّت تلقّن حتّى الآن؛ أخلاق التجرّد من الذّات.

ومع ذلك يظلّ الاحتمال واردًا بأن ليست الإنسانيّة بكلّيتها مصابة بالانحلال، بل فقط ذلك الرهط الطفيلي من البشر؛ رهط القساوسة الذي استطاع بواسطة الأخلاق أن ينتحل له صفة مقرّر القيم، والذي استشفّ في الأخلاق المسيحيّة وسيلة لممارسة السلطة. وفي الواقع، هذه هي رؤيتي: إنّ المعلّمين وقادة البشريّة في مجملهم لاهوتيّون، وهم أيضًا منحطّون في مجملهم؛ من هنا كان انقلاب القيم إلى معاداة للحياة. ومن هنا كانت الأخلاق... تعريف الأخلاق: الأخلاق هي الحساسيّة المَرَضيّة للمنحطّ مع النيّة الخفيّة في الانتقام من الحياة - وقد تمّ ذلك بنجاح. إنّني أُولي أهمية لهذا التعريف.

8

أفهمتموني؟ لم أقل كلمة واحدة هنا لم يكن زرادشت قد نطق بها منذ خمس سنوات. لقد كان الكشف عن الأخلاق المسيحيّة

حدثًا دون مثيل؛ كارثة حقيقيّة. وإنّ من ينير العقول حول هذه المسألة يعدّ une force majeure، قدَرًا: إنّه يشرخ تاريخ الإنسانيّة شطرين. يعيش الإنسان قبله، ويعيش بعده. . .

لقد وقعت صاعقة الحقيقة بالضبط على ذلك الذي كان يحتلّ المنزلة الأعلى: لينظر كلّ من أدرك ما الذي وقع تدميره هنا، إن كان ما يزال هناك شيء في قبضته. فكلّ ما ظلّ يُدعى حقيقة حتّى الآن قد تمّ الكشف عنه كأكبر أشكال الكذب ضررًا، وأكثرها مكرًا وتسترًا، وعُرّفت دعوى «إصلاح» البشريّة على أنها حيلة ماكرة تهدف إلى إفراغ الحياة من مادّتها الحيويّة ذاتها وإصابتها بفقر الدّم: الأخلاق كامتصاص الدماء vampirismus . . . إنّ من يكتشف حقيقة الأخلاق سيكون في الآن ذاته قد اكتشف لا قيمة كلّ القيم التي اعتُقد فيها من قبل، أو التي ما زال يُعتقد فيها، ولن يرى ما يستحقّ التقدير في كلّ أولئك الذين أحيطوا بأسمى آيات التقدير، ولا في أولئك الذين كُرّسوا فصيلة مقدّسة من بين البشر. سيرى فيهم رهطًا من المخلوقات المشوّهة الأكثر شؤمًا؛ مشؤومة لأنّها ظلّت تمارس سحرًا وغواية. . . لقد ابتُدعت فكرة الله كمفهوم نقيض للحياة؛ داخلها جُمع كلّ ما هو مضرّ، سامّ ومفترٍ، وكلّ العداوة القاتلة للحياة، في كلٍّ موحَّدٍ مثير للفزع. وابتُدعت فكرة «الماوراء»، و«العالم الحقيقي» من أجل تجريد العالم الواقعيّ الوحيد الموجود من كلّ قيمة؛ كي لا يُحتفظ لواقعنا الأرضيّ بأيّ هدف ولا أيّة معقوليّة، وأيّة مهمّة! وابتُدعت فكرة «الروح» و«العقل» وأخيرًا «الروح الخالدة» بهدف تحقير الجسد، وإصابته بالمرض - بـ«القداسة» -، ولكي تقابَل مسائل الحياة التي تستحقّ العناية الجديّة

مثل المأكل والمسكن ونظام الغذاء العقلي، ومعالجة الأمراض، والنظافة وما يتعلّق بأحوال الطقس بعدم اكتراث أحمق مفزع! «خلاص الروح» عوضًا عن الصحّة؛ أعني بذلك بوتقة الحمق الدائري *folie circulaire* ما بين التشنّج التّكفيري (من الكفّارة) وهستيريا الخلاص! لقد ابتُدع مفهوم «الخطيئة» في الوقت الذي ابتُكر فيه ما يناسبها من أدوات التعذيب، وابتُدع مفهوم «الإرادة الحرّة» بهدف تشويش الغرائز، وجعل الريبة تجاهها طبيعة ثانية! إنّ فكرة «الغيرانيّة» و«نكران الذّات» هي العلامة المميّزة للانحطاط: الانجذاب إلى ما هو مهلك، وفقدان القدرة على تمييز ما هو نافع، وهي التدمير الذاتي متحوّلا عنوان فضيلة، «واجبًا»، و«قداسة»، وصِفةَ «ألوهيّةٍ» في الإنسان! وأخيرًا، وهذا هو الأكثر شناعة في الأمر، تتضمّن فكرة الإنسان «الخيّر» انحيازًا إلى كلّ ما هو ضعيف، مريض وفاشل، وكلّ شقيّ بذاته: كلّ ما ينبغي أن ينهار ويضمحلّ؛ يُصلب قانون الانتقاء، وضدّ كلّ من هو إثباتيّ، وكلّ متعلّق بالمستقبل، ضامن للمستقبل يُصاغ مثل أعلى مناقض للإنسان الفخور والمتفوّق – ويدعى عندها هذا الإنسان شرّيرًا... ولقد تمّ الإعتقاد في كلّ هذا كأخلاق! – *Ecrasez l'infame!* – سحقًا للشائن الدنيء –

9

أفهمتموني؟ – ديونيزوس ضدّ المصلوب...

المحتويات

هذا الكتاب

أعرف قَدري. ذات يوم سيقترن اسمي بذكرى شيء هائل رهيب؛ بأزمة لم يُعرف لها مثيل على وجه الأرض، أعمق رجّة في الوعي... فأنا لست إنسانًا، بل عبوة ديناميت. لا أتحدّث البتّة إلى كتلة الجماهير... وأشدّ ما يخيفني هو أن يكرّسني الناس ذات يوم **كقداسة**: بإمكان المرء أن يخمّن السبب الذي يدفعني إلى نشر هذا الكتاب قبل أن يحصل ذلك الأمر؛ سيكون عليه أن يحميني من أيّ استعمال شنيع سيّئ العواقب. لا أريد أن أكون قدّيسا، بل أفضّل أن أكون مهرّجًا... ولعلني بالفعل أضحوكة. ومع ذلك... فالحقيقة هي التي تنطق من خلالي. لكنّ حقيقتي فظيعة؛ ذلك أنّ الكذب هو الذي ظلّ يُدعى حقيقة حتّى الآن.

فريدريش نيتشه